



الأمم كتاب

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد ٤٦ ربيع الأول ١٤١٦ هـ السنة الخامسة عشرة

المستقبل للإسلام

مركز تحقيقات كامبوتر علوم إسلامي

أكرم الله من عبيد الله



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

کتابخانه امام خمینی (عج)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المستقبل للإسلام

الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤١٦ هـ
تموز (يوليو) ، آب (أغسطس) ١٩٩٥ م

٢١٠

أحمد علي الإمام

المستقبل للإسلام / تأليف أحمد علي الإمام .

الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥ م .

١٦٥ ص ، ٢١ سم - (كتاب الأمة ٤٦) .

(رقم الایداع القانوني بدار الكتب القطرية : ١٩٩٥ / ٣٥٨) .

الرقم الدولي الموحد للكتاب (ردمك) : ٢٠ - ٢٢ - ٢٣ - ٩٩٩٢١

١ . العنوان ب . السلسلة

مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامية

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة قطر

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

صدر منه :

- **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**
« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد النزالى
- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**
« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرغاسوى
- **العسكرية العمورية الإسلامية**
« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب
- **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**
« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل
- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى**
« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق
- **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى**
« طبعة ثالثة » - الدكتور معن عبد الحميد
- **الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**
« طبعة ثالثة » - « طبعة ثالثة » - الدكتور نيل صبحى الطويل
- **نظرات في مسيرة العمل الإسلامى**
« طبعة ثالثة » - عمر عبيد حسن
- **أدب الانحلال في الإسلام**
« طبعة ثالثة » - الدكتور طه جابر فهاض العفرانى
- **التراث والمعاصرة**
« طبعة ثالثة » - الدكتور أكرم ضياء العمري
- **مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامى**
« طبعة ثالثة » - الدكتور عباس محجوب
- **المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل**
« طبعة أولى » - عبد القادر محمد سيلا

● البهوك الإسلامية

« طبعة أولى » - الدكتور جمال الدين عطية

● مدخل إلى الأدب الإسلامي

« طبعة أولى » - الدكتور نجيب الكيلاني

● المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة أولى » - الدكتور محمد محمود الهوارى

● الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

● فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنة

● قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » - الدكتور زغلول واهب النجار

● دراسة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد مسفر

● في فقه التدين قهماً وتزويلاً

الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد المجيد النجار

● في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع - الاستثمار - النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور زفعت السيد للعوضي

● النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية - دراسة مقارنة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

● أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد محمد كتمان

● المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب

● مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

● مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرمان الكيلاني
- الصحوة الإسلامية في الأندلس
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور علي المتنصر الكشاني
- اليهود والتحالف مع الأقوياء
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي
- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ منصور زويد المطييري
- النظم التعليمية عند المحدثين
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ المكي اقلانية
- العقل العربي وإعادة التشكيل
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور عبد الرحمن الطويري
- إتفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور يوسف إبراهيم يوسف
- أسباب ورود الحديث
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد رافت سعيد
- في الغزو الفكري
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح
- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول) + (الجزء الثاني)
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أكرم ضياء العمري
- فقه تغيير المنكر
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد
- في شرف العربي
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم السامرائي
- المنهج النبوي والتفسير الحضاري
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ يرغوث عبد العزيز من مبارك
- الإسلام وصراع الحضارات
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد القديدي
- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عماد الدين خليل

قال تعالى :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كََمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(النور: ٥٥)

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنه

الحمد لله ، الذي أنعم علينا بالإيمان لسبيله القويم ، وهذان صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .
والصلاة والسلام ، على المنقذ من الضلال ، خاتم الانبياء والمرسلين ، الذي أخرج الناس من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، حرر العبودية ، التي هي نزعة فطرية ، في الإنسان ، من التسلط ، والاستعباد ، واسترد إنسانية الإنسان ، ووضع عن البشرية إصرها ، والأغلال ، التي كانت عليها .
وكانت النبوة ، بكل المفاهيم ، والاعتبارات ، والواقع الميداني ، والسياق التاريخي ، ثورة تحرير ، وانعتاق ، ونسخ لالوهية الإنسان على الإنسان ، التي تمارس تحت شتى العناوين ، والشعارات ، والادعاءات ، لإخلاص الوجهة لله سبحانه وتعالى . ذلك أن الشر ، والظلم ، تاريخياً ، ناشئ ، من تسلط الإنسان على الإنسان ، وتعدد الآلهة ، المتخذة من دون الله ، والانحراف عن التوحيد ، الذي يعني فيما يعنيه : مساواة الخلق أمام الخالق . والذي لم يعرف الجاهلية ، لا يعرف الإسلام حقيقة ، وبعد :

فهذا كتاب الأمة السادس والأربعون : «المستقبل للإسلام» ، للدكتور أحمد علي الإمام ، في سلسلة «كتاب الأمة» ، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، في دولة

قطر ، مساهمة في التحصين الثقافي ، والوعي الحضاري ، وإعادة بناء المسلم المعاصر ، وإحياء وعيه بدوره الحضاري ، ورسائله الإنسانية ، ووظيفته في الشهادة على الناس ، والقيادة لهم ، إلى الخير ، وإلحاق الرحمة بهم ، بعد تحققه بالمرجعية الشرعية ، وتبصره بالسنة الاجتماعية ، في النفس والآفاق ، التي تمثل أقدار الله ، وسننه ، التي لا تتبدل ، ولا تتغير ، ليحسن التعامل معها ، ويمتلك القدرة على تسخيرها ، ومغالبة قدر يقدر أحب إلى الله ، والفرار من قدر إلى قدر ، فليس الرجل الذي يستسلم للقدر ، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله - كما يقول ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين - وهذا لا يتأتى ما لم يمتلك - إلى جانب فقه السنن - القدرة على استشراق التاريخ ، واستيعاب الواقع ، وإبصار المستقبل ، في ضوء هدايات الوحي ، ومدارك العقل ، وإعداد العدة المطلوبة ، بإحياء فروض الكفاية ، وتحقيق التخصصات المتعددة ، في فروع المعرفة جميعها ، والإحاطة بالعلم ، وإنضاج الخبرات ، والتزود بالطاقات الروحية المحركة ، ليتخلص المسلم من العطالة ، ويستأنف دوره من جديد ، على هدى وبصيرة .

وقد لا نأتي بجديد عندما نقول : إن الإسلام دين الفطرة ، وإن الحضارة الإسلامية ، هي عطاء الفطرة ، وإن خلود هذا الدين ، وامتداده ، وقدرته على الإنتاج ، والعطاء ، مستمد من خلود الفطرة ، التي تتأبى على التشويه ، والتبديل ، وتمتلك إمكانية التجاوز ، والتصويب ، قال تعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ ﴾ (الروم : ٣٠) .. إن هذا الدين ، فطرة الله ،

فقوامته، واستقامته، وقدرته على التقويم، والامتداد، والتجدد،
 والتجديد، مستمدة من رصيده في الفطرة البشرية، وكان بين الإسلام،
 الذي هو دين الله إلى البشرية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾
 (آل عمران: ١٩)، الذي رضى الله لعباده: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
 دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وبين الإنسان، الذي فطره الله على هذه الخصائص،
 والصفات، والمزايا، وتواعد، والتقاء.. وإن المعركة الحقيقية، كانت ولا
 تزال، في الصراع، والتدافع، بين الفطرة، التي فطر الله الناس عليها،
 وبين محاولات التشويه، والتبديل، والتضليل والاعتغال لهذه الفطرة..
 وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى في الحديث
 القدسي: «... وإني خلقت عبادي حنفاء، كلهم، وإنهم أتتهم
 الشياطين، فاجتالهم عن دينهم» (رواه مسلم في كتاب الجنة)..
 ونفهم قول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «ما من مولود إلا و يولد
 على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه.. كما تنج
 البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» (رواه مسلم،
 في كتاب القدر).

ونذكر الابعاد الكاملة لقوله تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ
 لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ
 الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿مُبِينٌ
 إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢١﴾ مِنْ
 الدِّينِ فَارِقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾
 (الروم: ٣٠-٣٢).

وفي ضوء ذلك أيضاً ، يمكن ان ندرك ، بأن حقائق الخلق الإنساني العضوي ، والنفسي ، لها من الثبات ، والامتداد ، والديمومة ، والعطاء ، كحقائق الخلق الكوني .. وإن تميزت ، عنها بأهلية الاختيار .. وإن رصيد الخلق في الفطرة البشرية ، كـرصيد الخلق في الفطرة الكونية .. وأن حقائقها ، لا تقل ثباتاً وامتداداً ، عن حقائق الشمس والقمر ، والكواكب الأخرى .. وأن السقوط المستمر للآلهة المزيفة ، التي أرادت تبديل خلق الله ، عبر التاريخ البشري ، وفتنت الناس إلى حين ، جاءت من مواضع البشر .. وإن غياب الحضارات ، واندثارها ، واستمرار الإسلام ، دليل على خلود هذا الدين ، لانه استجابة طبيعية لفطرة الله ، التي فطر الناس عليها ، وشاهد إدانة مستمر ، وتأكيد على أنه لا تبديل لخلق الله ، وإن العبرة دائماً هي بالعواقب ، والمآلات الممتدة ، وليست بالنتائج القريبة ، التي تحاول ان تختزل الخلود في لحظات مرضية ، في إطار الزمان والمكان ..

لذلك بالإمكان القول : إن رصيد هذا الدين ، في الفطرة البشرية ، أو باعتبار هذا الدين ، هو دين الفطرة ، أو هو الفطرة نفسها ، وإنه صبغة الله سبحانه وتعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٨) ، وثمرة علمه المطلق ، بتقلبات الزمان ، والمكان ، والإنسان : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) ، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٣٠) ، ونتاج عدله المطلق

الذي لا يليق به غيره ... إن هذا المنطلق لفطرية هذا الدين ، هو الذي أهل الإسلام ، ليكون دين الإنسان ، وهو الفيصل الأساس ، بين الإسلام ، وسائر المشروعات الحضارية البشرية ، والمنظومات العقائدية المختلفة ، والأيدولوجيات الوضعية المتعددة .. ولعل هذا هو السر الأعظم ، في خلود الإسلام ، حيث تتساقط المشروعات ، والحضارات البشرية ، والدينية التي عبث بها أيدي البشر .

إن الإمكان الحضاري ، والقدرة على تحقيق الشهود الحضاري على الناس ، والقيادة لهم ، وتقويم سلوكهم ، بشرع الله ، الذي يمثل أساس مهمة الأمة المسلمة ، الذي بينه قوله تعالى : ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة : ١٤٣) ، نابع من القابليات المركوزة في الفطرة لهذا الدين .

وفي نطاق هذه القدرة ، المتميزة ، لهذا الدين ، على النهوض ، وإعادة البناء ، الذي اصطلحنا على تسميته : بالإمكان الحضاري ، يمكن لنا أن نلمح بعض المقومات ، ولعل في مقدمتها ، إضافة إلى ركيزة الفطرة : أن رصيد التجربة البشرية التاريخي ، وبكل إصاباته ، وإنجازاته ، وسقوطه ، ونهوضه ، وعبره ، ودروسه ، انتهى إلى النبوة الخاتمة ، فهي بذلك تمتلك ، إلى جانب رصيد الفطرة ، رصيد الفعل التاريخي ، الذي يعتبر المختبر الحقيقي للأفكار ، والمبادئ ، والدعوات ، والحضارات ، والمعبرات ، فهي تقف على قمة التجربة البشرية ، ليس وقوف الذاهل ، الغافل ، وإنما وقوف المبصر ، الذي يمتلك أدوات النظر ، ومعاييره ، وقيمه .

إن الوقوف على هذه القمة الحضارية ، إن صح التعبير ، بكل ما فيها من نهوض ، وسقوط ، وكفر ، وإيمان ، وخير ، وشر ، وقوة وضعف ، في أقدار التدين ، سوف يمكن المسلم ، من امتلاك القدرة على استشراف الماضي البعيد ، والنظر إلى كيفية بدء الخلق ، والتأمل في مسيرته ، وما تعرضت له من عثرات ، كما يمكنه من استشراف المستقبل البعيد ، والمآلات ، والعواقب ، في ضوء ذلك الماضي ، الذي استقرت له ، وفيه ، قوانين الاجتماع البشري ، والحركة التاريخية ، وتأكدت فاعلية سنن الله في النفس ، والآفاق .. وحتى لا يصيب إنسان الإسلام ، الذهول ، والغفلة ، والعجز ، والضياع ، جعل الله النظر في العمق التاريخي ، والتأمل في العواقب ، والاهتداء إلى السنن ، الناظمة للحياة ، والاتعاظ بأحوال السابقين ، واختصار الزمان ، والتجربة ، وتحقيق الوقاية الحضارية ، من السقوط ... جعلها من الفروض الحضارية ، أو الاجتماعية ، فقال تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿

(آل عمران : ١٣٧-١٣٨) .

وإذا سلمنا بأن الحاضر هو مستقبل الماضي ، وماضي المستقبل ، كما يقال ، أدركنا الرصيد ، والزاد ، ومقومات الرؤية المستقبلية ، التي يتمتع بها إنسان الإسلام ، الذي لم يقف فيها عند حدود المحسوس ، في عالم الشهادة ، ويخادع ببعض النتائج القريبة ، ويعيش قلق المصير ، وإنما يتجاوز إلى ما وراء المحسوس ، والمنظور ، في عالم الشهادة ، إلى التحقق

برؤى مطمئنة عن العواقب ، والمآلات ، التي سوف تصير إليها الأمور ، من خلال مقدماتها في الماضي ، ونتائجها في الحاضر ، الأمر الذي سوف ينتهي بها إلى ادراك مآلاتها المستقبلية ، المقترنة بتوثيق الوعي ، الصادق المصدق ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُنِثُّكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ (فاطر : ١٤) .

وهنا قضية ، قد يكون من المفيد الإشارة إليها ، ولو سريعاً ، وهي أن الرؤية ، التي يمنحها الإسلام للمستقبل ، بشكل أخص ، ولعالم الغيب بشكل أعم ، ليست رؤية غائمة ، حاملة ، طوباوية ، بعيدة عن القدرة على التصور ، والإحاطة العقلية بها ، وإنما هي رؤية تمتلك كامل مقوماتها ، وحتى مقدماتها المادية في الدنيا ، ونماذج السنن ، التي تحكمها ، حيث يمدنا التاريخ بدليل صدقها ، وفعاليتها ، ويضعنا على عتبة المستقبل ، متحققين بالزاد المطلوب .

لذلك نقول : بأن أي استشراف للمستقبل ، لا يمكن أن يتحقق بدون استشراف للماضي ، والتحقق به ، وأي إدراك لمصير الخلق ، لا يمكن أن يدرك بدون السير في الأرض ، والنظر في السيرورة البشرية : كيف بدأ الخلق ، قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) .

والقرآن الكريم ، لم يكتف ، بتوجيه المسلم صوب التاريخ ، وأمره بالتوغل فيه ، واكتشاف السنن النازمة للحركة الاجتماعية ، وتسخيرها ، والوقاية الحضارية من إصاباتنا ، وتركه يمارس الاكتشاف بنفسه ، وإنما زوده بهدايات الوعي ، كما زوده بأدلة ، ونماذج تاريخية ، في القصص

القرآني ، تفتح بصيرته ، وتقدم له القدر ، الذي يشكل النموذج ، وسراج الهداية ، ودليل العمل ، وبوصلة التوجه .

والمقسوم الآخر ، الذي يمتلكه هذا الدين ، في إطار الإمكان الحضاري ، أنه يمتلك ، دون غيره من الأديان ، صحة النص السماوي ، وسلامته من التحريف ، والتبديل ، وانتقاله بالتواتر .. وعلى الرغم من أن سلامة النص ، تعتبر من لوازم الخاتمية ، حيث تعني الخاتمية ، في أقرب مدلولاتها ، توقف التصويب من السماء ، لما يمكن أن يكون من عمليات التحريف ، والتبديل ، والإلغاء ، فإن من خصائص الخلود أيضاً ، استمرار النص سليماً ، لكل الأجيال ، في كل زمان ومكان ، حيث لا يعقل أن يخاطب الناس بنصوص محرفة ، أو منحولة ، ومن ثم يحاسبوا على مدى التزامهم ، بما حمل لهم الخطاب من تكاليف ، وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم الأبعاد الكاملة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

نقول : على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من لوازمه المادية ، وثمرته ، بتعهد الله بالحفظ ، فإن الخطاب السماوي في الرسالة الخاتمة ، خضع لأعلى درجات التوثيق ، والحفظ ، والنقل ، حيث بلغ حد التواتر ، الذي يفيد علم اليقين ، مشافهته ، وكتابته ، إلى درجة أصبح معها النص القرآني - بالمعايير العلمية البشرية - يعتبر أقدم وثيقة تاريخية ، وردت بطريق علمي صحيح ، ولذلك قد لا نستغرب ، أن يدرك ذلك بعض أبناء الأديان الأخرى ، ويقوده إدراكه ، ومنهجه العلمي الوثائقي ، إلى اعتبار القرآن ، هو المصدر

الوحيد ، الوثيق ، لبيان عقائد النصرانية، واليهودية الصحيحة، وبيان داخلها من تحريف ، وتشويه ، ذلك أن المصادر الأخرى ، لا يوثق بها ، لا من الناحية التاريخية ، ولا من الناحية العلمية ، إذا خضعت للفحص والاختبار ، وأن قبولها واستمرارها ، محكوم بنوع من التسليم ، وهالة من القدسية، تحول دون مناقشتها، وعرضها على موازين التقويم والنقد .

وهنا قضية، لابد من إثارتها، ولعلها من مقومات الإمكان الحضاري أيضاً: وهي أن المسلمين، في الجيل المشهود له بالخيرية، لم يفهموا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ الْخَافِضُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ، أنهم معفون من مسؤولية الحفظ، والتوثيق، والنقل، طالما أن الله تعهد بها، وإنما ادركوا مسؤوليتهم تجاه القرآن، وأنهم أوعية الحفظ ، والنقل، وأن الحفظ والنقل، إنما يتحقق من خلال عزمات البشر وفعلهم، لذلك، سارعوا إلى الحفظ والكتابة، منذ بدء الوحي، حيث اتخذ الرسول ﷺ كتاباً للوحي، ونهى عن كتابة غير القرآن؛ حتى لا يختلط النص السماوي بكلام البشر، فقال: « لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحاه » (رواه مسلم، في كتاب الزهد) ، وأربعهم اشتداد القتل بالقراء، في معركة اليمامة ، وخافوا على ضياع القرآن ، وأن يلحق بهم ما لحق باليهود ، والنصارى ، من الاختلاف، ومن ثم استنفروا جهودهم كاملة لحماية خطاب الله، الذي هُدد بالإصابة، فكان جمع القرآن ، وحفظه ، ونقله ، حتى وصلنا كما أنزل .

وأمة تمتلك ، وتتفرد بوراثته الكتاب ، وبامتلاك النص السماوي الخاتم ،
الخالد ، سليماً ، وتدرك أن مدلولاته ، ومقاصده ، لا بد أن تتحقق من
خلال عزمات البشر ، هي أمة مؤهلة ، لتحقيق الشهادة على الناس ، والقيادة
لهم ، والقيام بأمانة الشهود الحضاري .

وقد يكون من الأمور المهمة ، التي تقتضي الإشارة إليها ، ونحن بسبيل
الكلام عن مقومات الإمكان الحضاري الخالد ، الذي تحقق للأمة المسلمة ،
والذي يمنحها القدرة على النهوض ، وإعادة البناء ، هو عقيدة التوحيد ،
وثمراتها الإيجابية ، في إعادة صياغة الإنسان ، وتوحيد وجهته ، في
العقيدة والعبادة ، والولاء والبراء ، وتحقيق الانسجام بين نفسه ، وروحه ،
وجسمه ، وعقله ، وعاطفته ، وسائر أشواقه ، وتطلعاته ، وسموه ،
وحاجاته ، وترقية خصائصه ، وتصعيد غرائزه ، ذلك أن التوحيد لم يقتصر
على آفاق البحث النظري ، في مجال العقيدة ، وتوحيد الأسماء والصفات ،
وإنما أثمر رؤية توحيدية ، في كل شعب الحياة ، المعرفية والعملية ، ونفي
الشرك ، وتوحيد الوجهة ، في المجال السياسي ، والاجتماعي ،
والاقتصادي ، والأخلاقي : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢) .

ولعلنا نقول هنا : إن التوحيد هو الركيزة الأساس ، في الإمكان
الحضاري ، حيث قضى على التثليث ، والتجسيد في العقيدة ، الذي حاول
إخضاع الخالق لسيطرة الإنسان ، وخصائصه ، وصفاته ، وقضى على
الثنائية ، بين الوحي والعقل ، التي كانت سبباً في سقوط الحضارات

تاريخياً، وتشطير الإنسان ، وتقطيع أوصاله ، وتعدد وجهاته ،
ومنازعه ، ومصادر التلقي عنده .

لقد تخلص إنسان الإسلام ، من ثنائية الوحي والعقل، ذلك الخيار
الصعب ، الذي طُرح تاريخياً ، كثمرة لمقدمات مغلوطة ، فلم ير المسلم
تناقضاً، بين معارف الوحي، ومدارك العقل؛ لأن الله، هو مرسل الوحي ،
وخالق العقل، ومكلفه بتعاليم الوحي ، ومخاطبه بمعارفه ، ولذلك فلا
يمكن أصلاً، تصور أي تناقض .. فالعقل سبيل معرفة الوحي، ومحل
تكليفه، والوحي ، هو سراج الهداية للعقل، والإطار المرجعي، والضابط
المنهجي لمعارفه ، ولا يمكن ابتداءً لأحكام الوحي ، أن تناقض العقل
السليم، لأنه محل الخطاب والتكليف، كما أسلفنا .. ولو افترضنا أن
الصدام والتناقض ، حاصل من الناحية النظرية، فلا معنى إذاً للتكليف،
الذي مناطه العقل ، لأن التكليف لا يقع إلا على محله .. ولما كان العقل ،
متأثراً بالرغبات والنزوات، وواقعاً تحت احتمالات خطأ الحواس المعتمدة ،
لإيصال المعلومة إلى العقل، كما أنه خاضع للعلم المحدود، والعمر المحدود ،
والاطلاع النسبي، فلا يمكن له أن يستقل بالنظر، والحكم . أما الوحي
فهو: خطاب الله، العليم، علماً مطلقاً، منزهاً عن الخطأ والغرض، والمُبَلَّغُ
المُبَيِّنُ له هو: الرسول المعصوم ﷺ، لذلك فالتعارض منتف، بأصل الوضع،
أما عند توهم التعارض، أو وجوده، لسبب أو لآخر، فإن الوحي المعصوم،
مقدم عقلاً، على العقل المظنون .

وجيل خير القرون، ومن تبعهم بإحسان، في فترات التآلق ، والعطاء

الحضاري كلها، لم يعانون من هذه الإشكالية، التي دمرت إنسان الحضارة الغربية، ووضعت أمام الخيار الصعب، فانتهى، إما إلى إلغاء العقل، وإسقاطه، واعتبار التدين والإيمان، يعني ويقتضي: الإلغاء الكامل للعقل، والتسليم، بدون تعقل، الأمر الذي أدى إلى شيوع الخرافة، و التصورات المشوهة، والانسلاخ من الدين، والقيم الأخلاقية.. وإما إلى نفي الدين، وتاليه العقل، والاكتفاء بعلم ظاهر الحياة الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الروم: ٧)، وإسقاط معارف الوحي، وتقطيع الإنسان إلى أبعاض.

إن جيل خير القرون، والفترات التاريخية كلها، التي تمتعت بالبناء، والتألق الحضاري، لم تعان من هذه الثنائيات، إلا عندما طغت مفاهيم الحضارة الغربية، وأخذ الناس بأشائها، ونقلوا أفكارها، وفلسفتها، وثقافتها، وهماً، منهم بأنها قارب النجاة، وسبيل الرقي الحضاري وما زادتهم إلا تبعية وتكريساً للتخلف، ونوعاً من الفصام الحضاري.

ولعل من مقومات الإمكان الحضاري، الذي يؤهل الأمة المسلمة للشهود الحضاري، أو بعبارة أدق: يؤهلها للشهادة على الناس، والقيادة لهم: هو وجود نموذج الاقتداء التطبيقي، المعصوم، الذي تم تطبيقه، وبناءؤه، على عين الله، صاحب الخطاب الأصلي، وفعل المعصوم ﷺ لتنزيل القيم، والنص السماوي المطلق، على الواقع النسبي، وتقويم سلوك الناس بها.. وهذا النموذج الذي امتد بناؤه ثلاثة وعشرين عاماً، استوعب أسس الحالات، وسبل حلول المشكلات، التي يمكن أن تتعرض لها البشرية، في تاريخها الممتد، حتى قيام الساعة، إنه نموذج للدعوة والدولة،

والضعف والتمكين، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر. الخ .. أنموذج
 لكيفية التعامل مع القيم، من خلال الواقع، والتعامل مع الواقع، والارتقاء
 به، وتقويم سلوكه، بشرع الله، من خلال القيم .. ويبقى المطلوب، في كل
 مشروع للنهوض والتجاوز: القدرة على استلهام الأنموذج المعصوم، وفقه
 الحالات المشابهة، ووضع الواقع في موقعه المناسب، من مسيرة بناء
 الأنموذج، والإفادة من كيفية تعامله مع الحال المشابه، لتسديد المسيرة،
 وتغذية السير، بعيداً عن أي تقليد، ومحاكاة للنماذج الرديئة، من
 أي مصدر جاءت. لذلك جعل الله استلهام الأنموذج المعصوم، ديناً
 من الدين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾
 (الأحزاب : ٢١) .

ومن الأمور التي لا بد من لفت الانتباه إليها، ويمكن اعتبارها من
 مقومات الإمكان الحضاري أيضاً، في هذا المجال - مجال تميز الأمة
 المسلمة، بأنموذج الاقتداء التطبيقي المعصوم، لتنزيل القيم على الواقع - هو
 استمرار حمل الأنموذج، وعدم انقطاعه، في كل المراحل .. صحيح بأن
 مساحة هذا الأنموذج، قد تضيق، وقد تتسع، لكنها أبداً لا تنقطع، ولعل
 سمة الخلود، التي تعتبر من لوازم الرسالة الخاتمة، تعني فيما تعني، من
 الناحية النظرية: القدرة على الإنتاج العملي في كل عصر، وتأكيد ذلك من
 الناحية العملية التطبيقية، إنما يكون في امتداد الأنموذج، الذي يجسد
 القيم، ويدل على قدرتها على الإنتاج، وقابليتها للتطبيق، وإثارة
 الاقتداء بها .. في ضوء ذلك، يمكن أن نفهم بعض الأبعاد الغائبة، لقول

الرسول ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » (رواه البخاري ومسلم) .
إنه استمرار لانموذج الاقتداء ، الذي يمنح الدليل العملي ، والشاهد الواقعي على الإمكان الحضاري ، وقابليات النهوض ، وإعادة البناء ، والإقلاع من جديد ، ذلك أن الطائفة القائمة على الحق ، تمثل بحق ميداناً تدريبياً تأصيلياً للمعاني الغائبة ، وترجمة القيم إلى واقع وسلوك ، والأفكار إلى أفعال .. ولعل امتلاك الأمة المسلمة للقيم ، في الكتاب والسنة ، التي لا يد للإنسان في وضعها ، أو إلغائها ، والتي تمثل الدليل للفعل البشري ، والمعيار لصوابيته وخطئه ، يمنحها القدرة على اكتشاف أخطائها ، وممارسة عمليات التصويب ، والنهوض ، والتجدد الذاتي ، والقضاء على جوانب الانحراف ، ونوابت السوء .. يمنحها القدرة ، ليس فقط عل معايرة الحاضر (الواقع) ، وتحديد مواطن الإصابة ، والقصور ، ومعرفة أسباب التقصير ، ورسم سبل الخروج منه ، وتقويمه بشرع الله ، وإنما تمتلك القدرة أيضاً ، على تقويم الماضي (التاريخ) ، وبيان جوانب الانحراف والاستقامة ، والخطأ والصواب فيه ، التي انتهت بنا إلى ما صرنا إليه .

فالتاريخ ، هو في نهاية المطاف ، فعل بشري ، يجري عليه الخطأ والصواب ، وهو محاولة لتنزيل القيم على الواقع .. وهو ليس أمراً مقدساً ، ولا معصوماً ، وهو بذلك ليس مصدراً لتشريع الأحكام ، وإنما هو محل للدرس ، والعبرة ، والاهتداء إلى السنن الاجتماعية الفاعلة ، والتحقق بالوقاية الحضارية ، حتى لا يتكرر الخطأ ، وتستمر الإصابة .

فالامة المسلمة، ليست أسيرة لتاريخ أو لماضي، اللهم إلا السيرة الصحيحة، التي تمثل النموذج الاقتداء، المسدد بالوحي، والمؤيد به... بل لعل السيرة النبوية، تشكل أحد المعايير التطبيقية، لتقويم التاريخ، وبذلك فالامة المسلمة، قادرة باستمرار، على التجدد الذاتي، والتجديد، وهذا يعتبر أحد مرتكزات الإمكان الحضاري الكامن في طبيعة الامة، وقيمها، التي تؤهلها باستمرار، لاستئناف السير، ومعاودة النهوض، ولعل هذا، هو السر الحقيقي في عدم انقراض الامة المسلمة، وموتها، وعدم خضوعها بإطلاق، للدورات الحضارية، التي جرت على الحضارات التي سادت ثم بادت، على الرغم من خضوعها لسنة التداول الحضاري، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ذلك أن خميرة النهوض، تتمثل دائماً في القيم المستمدة من الوحي (الكتاب والسنة)، وفي تجسيدها، وتفعيلها في الطائفة الممتدة، القائمة على الحق.

لقد ذهب علماء الحضارات، كثرة لاستقراءهم التاريخ البشري، وصفحات السقوط والنهوض، إلى أن الحضارة، أية حضارة، تمر بمراحل ثلاث، فقالوا :

إن المرحلة الأولى : هي مرحلة الفكرة، مرحلة الإيمان بالهدف، الذي يملأ على الإنسان نفسه، ويشكل له هاجساً دائماً، وقلقاً سوياً، ويدفعه للعطاء غير المنتاهي، والتضحية في سبيل ذلك، بكل شيء، بما يمكن أن يعتبر أن من أهم سمات هذه المرحلة: بروز إنسان الواجب، الذي لا يرى

إلا ما عليه، ويقبل على فعله بوازع داخلي، بإيمان، واحتساب، دون أن يخامر عقله، ماله من حقوق .. هو إنسان واجب، إنسان إنتاج، وليس إنسان حق فقط، إنسان استهلاك .. وقد يكون من المفيد هنا، أن نذكر بحديث الرسول ﷺ، الذي وصف مرحلة الوهن الحضاري، والإشراف على السقوط، وحدد معادلتها، عندما سئل عن الوهن، الذي يصيب الأمة قال: «حب الدنيا» (ظهور إنسان الغريزة - إنسان الاستهلاك)، «وكرهية الموت» (غياب إنسان الإيمان، والإنتاج، والاحتساب) (الحديث رواه أحمد، مجلد ٥، ص ٢٧٨).

أما الدورة الحضارية الثانية، أو المرحلة الحضارية الثانية، التي تمر بها الأمة، هي مرحلة العقل، وضمور الإيمان، وفتور الحماس، نسبياً .. مرحلة التوازن، بين العمل والأجر، بين الحق والواجب، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الدنيا والآخرة، دورة ضبط النسب .. حلول العدل، محل الإحسان .. وهنا تصل الحضارة إلى قممتها، وتبدأ مرحلة السقوط، إذا لم تستدرك ما يتسرب لها من أمراض .

والدورة الحضارية الثالثة، أو مرحلة ما قبل السقوط النهائي، هي مرحلة غياب الإيمان والعقل، وبرز الشهوة، والغريزة، وانكسار الموازين الاجتماعية، واستباحة كل شيء وبكل الأساليب، وعندها تسقط الحضارة، وتموت الأمة، ويتم الاستبدال .

إن عدم خضوع الأمة المسلمة، للدورات الحضارية بإطلاق، وقدرتها على الاستمرار، والتجاوز، والتجدد، والتجديد، والنهوض، من دون

غيرها من الأمم والحضارات، يعني فيما يعني: أنها تمتلك الإمكان الحضاري الممتد، والمفقود في الحضارات الأخرى، السائدة منها، والبائدة، وذلك بامتلاكها النص السماوي السليم، الذي يشكل المعيار، وامتداد النموذج، المفعم بالإيمان، والإيثار، والإحسان، المتمثل بالطائفة القائمة على الحق، التي تمثل خميرة النهوض، بما تحمل من إيمان، وفاعلية، إنما تمثل استمرار إنسان الواجب، الذي يحفظ التوازن، ويعيد للحياة معناها المفقود، ويشير الاقتداء به، وهذا من ثمرات الخاتمية، والخلود، ومن لوازمهما، إن صح التعبير.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن ندرك موثيق الله، وعهده لهذه الأمة، أن لا يسلط عليها عدوها، تسليط استئصال وإبادة، وإنما تسليط تأديب على معاصيها، وتحريض لها، لتعاود المراجعة، والتقويم، والنهوض من جديد. قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (آل عمران: ١١١)، وقال رسول الله ﷺ: «... وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم» (رواه مسلم، في كتاب الفتن وأشراف الساعة).

وهنا نقطة، قد تكون جديدة بالتوقف قليلاً، بما يتسع له المجال، وهي أن السقوط الحضاري، مهما كان قاسياً، يكون بالإمكان تجاوزه، واستدراكه، واستئناف عملية النهوض من جديد، إذا اقتصر السقوط والانهدام، على عالم الأشياء، أو ما اصطلاح على تسميته: «بالمادية»، واستمر عالم القيم والأفكار، أو ما اصطلاح على تسميته: «بالثقافة»، سليماً... لذلك استطاعت الأمة الإسلامية، بما تمتلك من قيم محفوظة

بحفظ الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ،
والمتحقق حفظها، من خلال عزمات البشر، استطاعت ان تعيد البناء،
وتمارس عملية النهوض، على الرغم من فداحة الانكسارات، وعظم
النكسات، وشراسة الهجمات، وقوة الاعاصير المدمرة، لانها لم تفتقد
قيمتها ، وافكارها، ومخطط النهوض ودليله .

وفي ضوء ذلك، يمكن ان ندرك ابعاد قوله تعالى، في اعقاب هزيمة
احد: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩)
﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُذِرُوا لَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٣٩-١٤٠) .. إنه استعلاء الإيمان،
رغم سقوط، وهزيمة الأشياء، وعظم الانكسار. وقوله تعالى في سورة
البروج، بعد ان عرضت السورة لعذابات المؤمنين، وتحريقهم بالآخدود،
وشراسة الظالمين، وتقديم نماذج للظلم المتصاعد ، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ (٧) ﴿ فِرْعَوْنُ وَنَمُودٌ ﴾ (البروج: ١٧-١٨) (طغيان واستبداد
حاكم: فرعون. وتواطؤ وظلم أمة: نمود)، ثم ختم السورة بقوله تعالى:
﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج: ٢١-٢٢) ، الامر
الذي يلمح منه الإنسان، ان الشدائد الشديدة ، لا تنال من الأمة،
ولا تسقطها، إذا حفظ لها عالم افكارها، الذي يضمن القدرة على العود،
لذلك فإن معركة إسقاط الافكار، والغزو الثقافي، هي الاخطر دائماً،
وعملياً .. وأن عملية التحريف والانتحال، والمغالاة، هي الادهى والأمر ..
ولذلك ايضاً، نرى ان حسبة الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، رسالة كل

مسلم ، وفريضة الأمة المسلمة ، هي الحارس الأمين لعالم القيم ، وتطبيقاتها في المجتمع ، ونرى ان الدورات التجديدية على رأس كل مائة عام ، التي أخبر عنها الصادق المصدوق ، تأتي لتعيد تنقية عالم الأفكار ، مما أحدث فيه من جديد « يبعث الله على رأس كل مائة عام ، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » (رواه أبو داود ، في الملاحم) ، ليبقى الإمكان الحضاري مستمراً .

وفي إطار ما تتمتع به الأمة المسلمة ، من الإمكان الحضاري ، الذي يمنعها من السقوط ، ويدفعها إلى النهوض ، بما تمتلك من الخصائص ، التي أشرنا إلى شيء منها ، قد يكون من الأهمية بمكان ، العود على بدء ، من أن الحضارة الإسلامية ، بعبائنها ، وامتدادها ، لم تعان ، على مستوى التصور والسلوك ، معاً ، أو على مستوى الفكر والفعل ، من ثنائية العقل والوحي ، الأمر الذي أدى إلى تشطير الإنسان ، وتدمير بعضه ، وإنما سار العقل والوحي بخطين متوازيين ، لا يصطدمان ، فلا تعارض في التصور الإسلامي ، بين العقل والنقل ، أو بين صريح المنقول ، وصحيح المعقول ، والأمر لا ينظر له في المجال المعرفي الإسلامي ، في إطار التعارض ، الذي غالباً ما يمليه اليوم الموقف الدفاعي ، بمقدار ما ينظر إليه في نطاق الانسجام والتوافق ، لإنتاج الإنسان المتوازن ، المتناسق .

فإذا كان الوحي في الكتاب والسنة ، مصدراً للمعرفة والتشريع ، فإن العقل ، بما يمتلك من الإمكان ، والأهلية ، هو الذي يستنبط ، ويحقق ذلك ، بل ويمتد به لتعددية الرؤية ، وتنزيل النص ، وتحقيق مقاصده في الواقع ، بما

اصطلح عليه : (بالاجتهاد، الذي يعتبر المصدر الثالث للتشريع) .. وما الاجتهاد إلا إعمال العقل، لمذ الرؤية، وتوليد الأحكام الجديدة، للحوادث الجديدة، في ضوء الوحي، ذلك أن العقل، يجرد المقاصد، من حدود الزمان، والمكان، ويولد في ضوئها الأحكام الجديدة، أي أن العقل، يمتد بالوحي ليقوم بأحكامه جميع شؤون الحياة .. فإذا كانت النصوص تنتهى، والحوادث المتجددة لا تنتهى، كما يقول علماء الأصول، فإن اعتماد الاجتهاد كمصدر للتشريع، هو أحد مقومات الإمكان الحضاري، ومصدر الحيوية، وسبيل تحقيق الخلود، وآلية الفعل الحضاري، ذلك أن الاجتهاد، هو مصدر الإجابة عن كل الأسئلة، وتقديم الحلول لكل المشكلات، التي تواجه المسلمين، بعيداً عن صور التخلف، والعجز، والتخاذل الحضاري، التي يمكن أن يصنف خارج نطاق الإسلام الصحيح، وأمانة التكليف.

وقد يكون من الأمور، التي لا بد أن تقدر حق قدرها، على الرغم من كل المحاولات المستميتة لتشويهها، والتي كانت سبباً في اختيار الإسلام، واستمرار امتداده، في كل الظروف، والأحوال، والأوضاع، سواء في أكثر المجتمعات تقدماً مدنياً، أو في أكثرها تخلفاً وانحطاطاً، أن الإسلام استرد إنسانية الإنسان، وجعل التدين حرية واختياراً، واستطاع إيقاف تآله الإنسان على الإنسان، الذي هو مصدر الشر، والظلم في العالم - كما أسلفنا - وحلَّ المعادلة الصعبة، أو صَوَّبَ المعادلة، بين السلطة، والالوهية، والإنسان.

ذلك أن العلاقة ، بين السلطة ، والطغيان ، والعلو في الأرض ، وبين
الالوهية ، اخذت حيزاً كبيراً من تاريخ الإنسان الطويل ، في هذه الدنيا ،
حتى لتكاد تكون علاقة تلازم في فترات طويلة ، حيث كان يصعب على
صاحب السلطة ، أن يقبل ، أو يعترف ، أو يتصور بوجود سلطان غيره ، أو
بوجود إله غيره ، يمكن أن يتجه إليه الناس .

وهنا لابد أن نذكر مرة أخرى ، بقولة فرعون ، كاتمودج للطغيان في
التاريخ البشري ، عندما دعاه موسى إلى الإيمان بالله ، حيث قال :
﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص : ٢٨) ..
﴿ أَنَارِبُكُمْ إِلَّا عَنِ ﴾ (النازعات : ٢٤) ، ومقولة النمرود :
﴿ أَنَا أَنْتِي وَأُمِّيْتُ ﴾ (البقرة : ٢٥٨) ، واستدل لذلك من استخدام
سلطته ، التي أوهمته بالالوهية ، وفهم من قول سيدنا إبراهيم : إن الله
يحيي ، ويميت ، تلك العملية الساذجة ، حيث يقدر هو ايضاً أن يقتل
إنساناً ، ويطلق سراح آخر ، ممن حكم عليهم بالإعدام ، وعندما نأتي على
ذكر هذين التمودجين ، من تاريخ العلاقة ، بين الإنسان ، والسلطة ، أو بين
السلطان ، والتأله ، والعلو في الأرض ، فإننا نؤكد أن هذه التماذج ،
سوف تتكرر ، بشكل ، أو بآخر ، بشكل واضح ، سافر ، أو بشكل خفي
مستتر ، واقل ما في ذلك اليوم ، عزل الحياة عن سلطان الله ، ليحل محله
المتألهون ، أو آلهة العصر الجديد – ولكل عصر آلهته – لأن القرآن خالد ،
ومجرد عن حدود الزمان ، والمكان .. وهذا الخلود يعني تكرار الفراعين ،
والتماريد ، والقوارين ، وتكرار المواجهة ، والإصابات ، والتدافع ، بين

الحق ، والباطل ، ليمتحن الناس ، ويتميزوا ، والشر من لوازم الخير ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الرعد: ١٧) ولولا هذه الشواهد ، التي قد لا يخلو منها عصر ، أو مكان ، في جنبات الأرض الواسعة ، لكان القرآن ، كتاب تاريخ ، وقصة ، وتسلية ، لا علاقة له بواقع الحياة ، ولا مستقبلها .

إن صاحب السلطة ، إذا تجرد من الإيمان بالله ، وديمومة مراقبته ، وخشيته ، واستصحب الحذر من التسلط ، وما يترتب عليه من الإثم العظيم ، يصعب عليه ، بما يمتلك ، من القدرات التنفيذية ، والصلاحيات المنظورة ، والخواشي المنفذة بلا رؤوس ، يصعب عليه ، رؤية مقام العبودية لله تعالى ، واستشعار المسؤولية عن العمل ، والكف عن شهوات النفس . لذلك نرى ، من استقراء التاريخ ، أن الكثير من أصحاب السلطان ، والحكام ، حتى عند اعترافهم ، بوجود الله ، لم يرضوا أن يعترفوا بسلطانهم ، على الأرض !! وعند اعترافهم بهذا السلطان يحاولون تشويه ، صورة العبودية لله تعالى ، لتكون في خدمتهم ، فيجعلون من أنفسهم ، آلهة الأرض ، نيابة عن إله السماء ، ويعلنون أنهم هم المتحدثون باسمه ، والمفسرون لتعاليمه ، وأنهم هم ظله على الأرض ، الذين يمثلون إرادته ، وفي هذه الحالة ، يربطون ، بين استبدادهم ، وتسلطهم على حياة الناس ، وضمائرهم ، وبين إرادة الله ، الذي انتدبهم ، بزعمهم ، ليكونوا آلهة الأرض ، بحيث يصبح كل من يخالفهم ، أو يناقشهم ، أو يتقاعس عن

تنفيذ أوامرهم ، عاصياً لله سبحانه .. إنه التآله ، والتسلط ، والظلم ، باسم الله ، والدين ، وهو أشد وأشر أنواع التسلط ، وتعبيد الإنسان للإنسان . ولقد عانى الإنسان ، من الحكم الديني ، أو ما عرف في أوربا ، باسم : (الحكم الشيورقراطي) ، أشد المعاناة ، حيث لم يعد الحكم يتسلطون ، على دنيا الإنسان ، ويلغون وجوده ، واختياره ، وإنما امتد ذلك ، للتسلط على أخراه أيضاً ، لأن معارضة الحاكم الشيورقراطي ، عصيان لله ، سوف يحاسب عليه الانسان ، في الدنيا بالظلم ، والعسف ، والطغيان ، وفي الآخرة ، بالعذاب الأبقى !!

وكان من المستحيل ، عقلاً ، وواقعاً أن يستمر ، هذا التآله ، الذي يمارس على الإنسان ، منفصلاً ، ومنكراً لله تارة ، ومستخدماً اسم الله ، وإرادته ، حيناً آخر . لكن المشكلة بالقراءة الحاططة ، التي وقع فيها الإنسان ، أثناء النظر إلى معادلة السلطة ، والإنسان ، فتوهم أن المشكلة كلها آتية من الإيمان بالله ، الذي يزيفه هؤلاء ، الذين يدعون أنهم ظل الله على الأرض ، وليست المشكلة في التزييف ، ومحاولة الاعتداء على سلطان الألوهية ، من بشر ، هم كسائر البشر ، يعطون أنفسهم حق التسلط على الآخرين ، الذين لا يختلفون عنهم ، فكان أن أنكر الإنسان الدين ، والإيمان ، سقوطاً في هذا التزييف ، دون أن يدري أن حل المشكلة ، وتصويب المعادلة ، إنما يكون بالإيمان الصحيح ، وتوحيد الألوهية ، والربوبية ، وإيقاف الشرك السياسي ، ونسخ التآلهات السلطوية ، التي حاولت أن تجرّ الإيمان لحسابها .. ولم يدر الإنسان أن إلغاء الإيمان بالله ،

وقيمة ، التي تحكم الجميع ، ويتساوى أمامها الجميع ، هو تكريس
 للالهيات البشر ، بشكل ظاهر ، أو خفي ، لأنهم هم ، الذين سوف
 يتولون وضع الضوابط ، والمعايير ، التي يحكمون بها الناس ، ويغيرونها ،
 تبعاً لأهوائهم ، ولتحقيق مصالحهم ، وتأمين سلطتهم ، وتسلبهم .
 ولا بد أن نذكر هنا ، أن اعترى المواجهات ، كانت بين النبوة ،
 والكبراء ، سدنة الشرك السياسي .. كانت بين مدعي الالهية من البشر ،
 ومنكري الهية البشر وتسلبهم ، من الأنبياء ، إلى درجة يمكن أن نقول
 معها : إن النبوة جاءت كثورة تحريرية ، لإيقاف تسلط الإنسان ، على
 الإنسان ، وإعلان مساواة الناس ، وإعلان التوحيد ، والوحدانية ، التي
 تلغي تأليه البشر ، أو شراكة البشر .. جاءت لتحرر الإنسان ، من
 العبوديات جميعاً ، وتربطه ، بخالق البشر ، بما فيهم أصحاب السلطان ،
 وتمنحهم القدرة على الصمود ، والمواجهة ، والصبر ، في مواجهة الظلم ،
 والاستبداد ، والشرك السياسي ، وتجعل ثوابهم عظيماً ، في مواجهة التآله ،
 في الأرض ، وتقديم لهم نماذج للظلم ، والاستبداد السياسي الموهوم ،
 وكيف كانت عاقبته ، بل وتتحدى الظالمين ، والمتآلهين ، بالعواقب ، وأنهم
 على الأرض ، ليسوا أكثر من وسائل إيضاح ، وأدوات فتنة ، موقوتة ،
 للظلم ، والطغيان ، فأين فرعون ، وهامان ، ونمرود ، وقارون ؟ وتمنحهم
 الثقة ، والانتصار ، مهما اشتد الظلم ، والظلام ، فالذي قوّض ملك
 فرعون ، هو الذي تربى في قصره ، على الرغم من كل الاحتياطات
 السلطوية .

ونستطيع أن نقول هنا : إن الإسلام ، أو النبوة ، الخاتمة ، استطاعت أن تصوب معادلة السلطة ، والإنسان ، في التصور ، وتجسد هذا التصويب ، في الواقع ، عندما نزعَت صفة الألوهية ، عن كل المخلوقات ، وأعلنت المساواة في الإنسانية ، والخلق ، بين الحاكم ، والمحكوم ، بل أكدت أكثر من مرة ، حتى لا يتلبس الإنسان بالوهية الإله ، أن الأنبياء المتصلين بالله فعلاً ، هم بشر من البشر ، لا يمكنون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً .. وأن السلطة ، هي في نهاية المطاف ، تكليف ، وليست تشريعاً .. وأنها مسؤولية ، من أعظم المسؤوليات .. وأنها إجارة ، وليست إمارة ، وتعالياً على خلق الله .. وأن السلطان ، ملزم بتنفيذ شرع الله .. وأن طاعته لا تنعقد ، إلا بهذا الالتزام بالقيم ، التي لا يدل له في وضعها .. وأنه ليس بالضرورة ، أن يكون خير الناس ، لأنه تولى أمرهم .. وأن الشورى ، إنما تكون فيما لا نص فيه ، من الله ، ورسوله ، وحتى في تطبيق النصوص ، وتنزيلها على الواقع .. وأن الإنسان ، مسؤول أمام الله ، وليس أمام المخلوقين ، مهما كانوا .

نقول : لقد استطاع الإسلام ، أو النبوة الخاتمة ، تصويب معادلة السلطة ، والإنسان ، واسترداد كرامة الإنسان ، بحيث أصبحت العلاقة ، بين السلطة والإنسان ، نوعاً من العقد الاجتماعي ، الذي ضُبِطت فيه حدود الطاعة ، والمسؤولية ، سواء بالنسبة للحاكم ، أو المحكوم ، على حد سواء . وكان شعار ، أو ميثاق الحكم ، في الإسلام : « أطيعوني ، ما أطيع الله » - والناس يعلمون شرع الله ، الذي يشكل لهم المعيار لفعل الحاكم ، ويستوجب طاعته - « فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم » .. « ولت أمركم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنتم فأطيعوني ، وإن أسأت فقوموني ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

إن هذا الميثاق ، للعلاقة سوّى بين الحاكم ، والمحكوم ، وجعل المسؤولية أمام الله ، وليست أمام البشر ، وجعل القيم المنزلّة ، الثابتة ، هي معيار الحاكم ، والمحكوم ، وبذلك صوبت معادلة السلطة ، والإنسان ، والغيت الهويات البشر لبعضهم ، وهذا هو أشد أنواع التسلط ، الذي عانى منه الإنسان ، في تاريخه الطويل ، من التعامل مع الأرباب ، من غير الله .

لكن النزوع السلطوي ، إلى الطغيان ، والاستبداد ، والتأله ، والترفع على خلق الله ، لا يزال يتكرر بشكل ، أو بآخر . ولعل من مظاهر الخلود ، في القرآن ، أن يتكرر الوهم ، عند بعض أصحاب السلطان ، ويدعي بعضهم ، أنهم آلهة الأرض ، فتأتي ممارساتهم جميعاً ، اعتداءً على كرامة الإنسان ، واختيار الإنسان ، ويتكرر شعار : ﴿ ءَاْمَنُتُمْ لِمُرْقَبٍ اَنْ ءَاَذَنَ لَكُمْ ﴾ (الشعراء : ٤٩) ، ويستمر العدوان على سلطان الله ، في التشريع ، ويخول بعض أصحاب السلطان أنفسهم ، وضع الشرائع ، التي تؤمن مصلحتهم ، وتحقق تسلطهم ، ويتلاعبون بها ، طبقاً لأهوائهم ، حتى أصبحوا يتفننون بالاعتداء علي سلطان الله ، فكما كانوا ، في الماضي يعتبرون أنفسهم آلهة الأرض ، فهم اليوم يقولون : إن الإيمان بالله ، أو الإسلام ، هو نوع من العلاقة الوجدانية الخاصة ، بين الله ، والإنسان ، محلها الضمير ، بعيداً عن تنظيم مسالكه ، وعلاقاته ، في الأرض ، التي يتصرف بها ، بشر من البشر ، هم أصحاب السلطة .

وبعد هذا ، هل نستطيع أن نقول : إن فصل الدين عن الحياة ، أو بعبارة أدق ، فصل الحياة عن الدين ، الذي يمثل التطبيق العلماني ، في المجال المعرفي - كما أن اعتبار الإنسان مصدر كل السلطات ، والتشريعات ، باسم

الديموقراطية، يمثل الوجه الآخر للتطبيق العلماني في المجال السياسي - هو لون من الارتكاس ، عن طريق النبوة ، وعودة إلى تأليه السلطة، ومنحها سلطان وضع القيم للناس ، وإلغاء لقيم الله النازمة للحياة ، والعلاقة بين الناس ، وعودة إلى ممارسات الأرباب في الحكم ، والتشريع ، وإهدار كرامة الإنسان ؟

لذلك نقول : إن تصويب المعادلة ، بين السلطة ، والألوهية ، والإنسان، هو من أبرز ملامح الإمكان الحضاري ، وإعادة البناء الصالح .
وبعد :

ففي هذه الظروف العسيرة ، التي تمر بها الأمة المسلمة ، والتي يسودها الإحباط ، واليأس ، والتخاذل ، والاستسلام ، بسبب استكبار « الآخر » وعلوه ، وما استدعى ذلك من العبث بمفاهيم الجهاد ، وتغيب مدلوله ، وإسقاط تاريخه ، وتجاوز موقعه من الدين ، بلون من التأويل الفاسد ، والفهم المغشوش ، والانتحال الباطل ، وتفسير المنهزم ، تأتي هذه اللمحات التفاؤلية ، تحمل البشائر والبصائر ، بأن المستقبل لهذا الدين ، وتعيد الاعتبار لاستعلاء الإيمان ، الذي يكاد يتوارى ، والذي يحمي من الانكسار ، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ، وليس ذلك من خلال الأمنيات ، والرغبات ، وإنما من خلال السنن التغييرية ، التي شرعها الله وأرادها ، وفطر الناس عليها ، وزودهم بآلياتها ، بكل ما تقتضيه من الإعداد الروحي والمادي ، ليكون الإنسان هو وسيلة التغيير وهدفه ، في آن واحد .

يأتي هذا الكتاب ، ليؤصل لمفهوم الجهاد ، من الناحية الشرعية ، ويعيد له روحه ، وفاعليته ، ومواصفاته ، وبعده الحضاري ، والمستقبلي ، وما يقتضيه من إعادة الصياغة والإعداد ، ويحذر من التقاعس ، والتثاقل عن النفرة إليه ، الذي يؤدي إلى تعريض الأمة للاستبدال ، والانقراض ، خاصة وأن دور الإعداد الروحي بدأ يتضاءل ، ويغيب ، تحت وطأة الانتكاسات المتلاحقة ، وضغوط الحياة المادية ، وانطفاء الفاعلية ، وتسرب اليأس إلى النفوس ، وغلبة سلطان العادة ، وغياب معاني العبادة ، وانكماش الأبعاد النفسية ، والمادية ، المترتبة على ملازمة المجاهد لذكر الله ، لكي يتحقق بالنصر والفلاح : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَآبِطُوا وَأَنْقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

إن الانهدام الروحي ، الذي يعاني منه ، الفرد المسلم اليوم ، ومحاولات الانتقاص ، والتقليل من شأنه ، وإغفال دوره ، يستدعي نذر النفس للمرابطة من جديد في هذا الموقع ، وإحياء معانيه في نفوس الأمة .

وقد حاول مؤلف الكتاب - جزاه الله خيراً - ترجيح بعض الأمور الاجتهادية ، لأسباب يراها ، ومواجهات يعيشها ، ومقاصد شرعية يهدف إلى تحقيقها - وفي الأمر سعة ، إن شاء الله - لكن تبقى وجهات نظر فكرية ، اجتهادية ، ليست بالضرورة أن تكون هي المرجحة في رأي كثير من المسلمين ، ذلك أن « كتاب الأمة » ، هو كتاب فكر ، معني بالاجتهاد الفكري ، والتشكيل الثقافي - وكل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب - من خلال مرجعية شرعية ، منضبطة بضوابط الكتاب والسنة .

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

مقدمة

الحمد لله ، الذي جعل المستقبل للإسلام ، بالفتح المبين ، والنصر العزيز ، والتمكين لعباده المستضعفين ، الذين يسعون لنشر هدى الله ، ونور الإسلام ، أنحاء المعمورة ، عبر القارات كلها ، تحقيقاً لوعده الله الحق : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) .. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) ، وهو مستقبل قريب ، إن شاء الله ، يتحقق معه استخلاف المسلمين في الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (النور : ٥٥) .. ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .. ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٠) .

وفي القرآن كله ، يعضده ما صرح من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام ، تأكيداً بأن المستقبل لدين الإسلام ، والأمة المسلمة ، فالمصدر محفوظ بحفظ الله ، باق أبدي الدهر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

فهو كتاب مصون عن التحريف ، والتبديل .. أخباره صادقة .. وأحكامه عادلة : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام : ١١٥) .. ورسالته عالمية ، نعم كل مكان وزمان .. ورحمته تشمل العالمين : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

والصلاة والسلام ، على من بعثه ربه ، بالرسالة الخاتمة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) ، فكان من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، ختمه للرسالات ، وعموم رسالته .. وختم الرسالة ، وعموميتها ، مقتضيان لأبديتها ، وبقائها ، لتؤدي دورها في هداية الإنسان ، وعمران الكون ، وسيادة الحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة الذاكرين ، القانتين ، الصالحين ، الذين شروا

أنفسهم ، وأموالهم لله ، وأقاموا شرع الله ، فحكموا بالعدل بين الناس ، وأحسنوا ، وأصلحوا المجتمع ، فكانت النهضة الواسعة ، المؤذنة بتجديد أمر الدين ، على سنة الله الماضية في القرون المتوالية : «إن الله يعث على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» (رواه أبو داود) .

وبعد :

فهذه دراسات ، كتبها في ظروف مختلفة ، حول المستقبل ، الذي نعتقد يقيناً ، بأنه للإسلام ، بإذن الله ، وعوامل وشروط صناعته ، آخذين بعين الاعتبار ، أنه يلزم لصناعة المستقبل ، للإسلام ، في عصرنا هذا ، تضافر جهود العاملين في ميادين العمل للمستقبل ، ومجالاته ، لتلتقي ، وتتحرك إلى قبلتها ، منشحة الصدور ، بتوحيد الله ، مجتمعة القلوب ، متحدة الكلمة ، على حب الله تعالى ، وحب رسوله ﷺ ، وحب المؤمنين : ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رِقْدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

ولعل في مقدمة هذه العوامل والشروط ، الجهاد في سبيل الله ، ذروة سنام الإسلام ، بمعناه الواسع ، الذي يشمل : إلى جانب الجهاد بالأموال والأنفس ، جهاد الحجة والبيان ، ومجاهدة النفس ، في سبيل الله ، ليكون من ثم سبيل تمكين الدين ، وإزالة العوائق والفتن ، التي تحول دون صناعة المستقبل ، ليعم من بعد السلام والأمن الحقيقيان ، يقول تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي مَا نَسُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَلَيْسَ نَصْرُكَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٣٩ - ٤٠) .

فالمؤمنون حين يمكن الله لهم دينهم الذي ارتضى ، يؤدون واجبهـم في بناء النفوس ، ونشر الطمأنينة ، وانشراح الصدور بذكر الله ، وتحقيق التكافل ، والإصلاح الاجتماعي ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهْمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُو بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) .

ومثلما كانت مشروعية الجهاد بالسلاح ، بعد سلوك السبل السلمية كلها ، مع الصبر على الأذى ، واحتساب ما لقي المؤمنون في سبيل الله ، فهو كذلك في ترتيب العمل الإسلامي اليوم ، لإحياء شعائر الله ، وإقامة شرائعه ، وتبليغ كلمة الحق ليكون الناس منها على بيّنة .. ولكن المؤمنين مأمورون أبداً بإعداد العدة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وعلى قدر طاقتهم في التصنيع الحربي ، والإعداد القتالي : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

وعوامل النصر الحقيقية ، هي الاستنصار بالله ، والتوكل عليه ، والافتقار إليه ، يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَتَأْتِيَكُمْ وَيَبْصُرُ بِزُرْقِكُمْ مِنْ الْطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(الأنفال : ٢٦) .. ويقول : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) . وقد لزم إعداد المجاهدين

أنفسهم ، بما يشرح صدورهم ، من التحقق بالمقامات الإيمانية ، والتزام ذكر الله كثيراً ، ليُقبل على القتال ، وهو كره للنفوس ، من حُبب الله إليه الإيمان ، وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، ليكون جهاد المجاهدين ، من ثم : حتى لا تكون فتنة ، ولا صد عن سبيل الله ، ويكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فالدعوة إلى الإسلام ، هي دعوة الذاكرين ، كما أن الجهاد في سبيل الله ، هو جهاد الذاكرين ، الذين إن مكَّن الله لهم في الأرض ، ورأوا إقبال الناس على الدين الحق ، ذكروا الله ، وعظموه ، وعلموا الناس أمور دينهم ، وسعوا في منافعهم ، ومصالحهم ،

وحكموا بينهم بالعدل ، والإحسان ، وأقاموا حضارة الذاكرين ، وكانت نهضتهم العمرانية ، تجعل المساجد محوراً وقبلة .

ومن هنا ، تنشأ الأمة الجليلة ، وتأخذ مكانها في الريادة ، والعمل ، والإنتاج ، والتفوق العلمي ، والثقافي ، والحضاري ، لأن الذكر والدعاء ، يبعثان على العمل الصالح ، ويزيدان المقامات الإيمانية .

ولذلك كان سلفنا ، من أهل الصحة ، والإحسان ، يتناصحون بذلك ، مثل قولهم لبعض : (اجلس بنا نؤمن ساعة) . (١)

وهذه الروح ، تحث على العمل ، والإنتاج ، والجد ، والجهد ، وبناء الدولة ، وإصلاح المجتمع ، بل إن الأذكار والأدعية المسنونة ، أثناء أداء هذه الأعمال ، والواجبات ، دالة على أن أكثر الذكر ، والدعاء ، ما يكون أثناء الحركة والعمل .. والأعمال العظيمة تنشأ ، والحضارة تنهض ، وتزدهر ، في ظل الإيمان ، والاطمئنان بذكر الله ، ودعائه ، واطمئنان القلوب ، وانسراح الصدور ، وتحقيق السلم ، والأمن .

وهي حقيقة مقررة ، وقد سجلها بعض المراقبين من الباحثين في تاريخ الحضارات : (إن الحضارة تبدأ ، حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع ، والإنشاء ، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية ، تستنهضه ، للمضي في طريقه ، إلى فهم الحياة ، وازدهارها) . (٢)

والحكم بالشرعية ، الذي يعتبر من أهم شروط صناعة المستقبل ، لأنه يستحيل عقلاً وشرعاً ، تصور مستقبل إسلامي ، بعيداً عن تطبيق شرع الله ، هو ثمرة الجهاد في سبيل الله ، لإقامة العدل والإحسان بين الناس ، وحماية المجتمع ، بسيادة أحكام الشريعة الإسلامية ، على سعة معاني الشريعة ، في المعاملات المدنية ، والقوانين الجنائية ، والحدود جزء منها ، ويميز للمسلمين ، وسياج منيع لتحقيق الاستقرار ، وإصلاح المجتمع ،

(١) البخاري ، الإيمان ، معلق ، وراجع كشف الخفاء للعجلوني ، ٥١/١ ، ج ١١٥ ، وعزاه إلى أحمد . وقال : حديث حسن .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد ١ ، ج ١ ، ص ٢ .

لأنه لا يكون صلاح في المجتمعات الإنسانية ، إلا بما شرعه الخلاق العليم ، الذي يعلم النجوى والسر وأخفى ، يقول تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) ..

فلا يحقق التناسق بين الكائنات كلها ، إلا ما شرعه الله ، وخلاف ذلك الجاهلية ، قديمة كانت أو حديثة : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا الْقَوْمِ يُؤْفِكُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) .

وقد أمر الله بأداء الأمانات إلى أهلها ، وإقامة العدل بين الناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، موافقهم ومخالفهم ، وعلى اختلاف أصولهم ومللهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

ومع العدل ، أمر بزيادة الإحسان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) ..

ثم أمر بالبر والقسط مع غير المسلمين ، ما داموا مسلمين : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المتحنة : ٨-٩) .

ومهما كانت قوة البطش ، التي يملكها المخالفون أو المحاربون ، فإن المسلمين يملكون أن يقدموا للمجتمع الإنساني ، هذه الدعوة .. وهي بقوتها الذاتية ، بالغة ، وهادية ، لمن شرح الله صدره للإسلام ، أو رضى بمسالمة هذا الدين ، ما دام حراً في اختياره ، لا سلطان لأحد عليه ، بلا إكراه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .. ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) .

لهذا ، فإن الحوار والمجادلة بالحسنى ، حيث وجد الدعاة سبيلاً إلى ذلك ، بتحقيق التحول السلمي للإسلام ، في كثير من بقاع الأرض اليوم ، تماماً كما حدث من قبل . ولنجاح هذه المهمة ، لا بد من نماذج صالحة ، متأسية بالنبي ﷺ ، يرى العالم أثر الهدي النبوي عليها ، في تكامله ، وشموله ، وجماله ، بحيث يشع رافة ، ورحمة . ولا يكون ذلك ، إلا وهذه النماذج ، توالي في الله ، وتعادي في الله .

وهذا الكتاب ، يُفتتح بحديث عن بشائر مستقبل الإسلام ، في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة ، وقفنا من خلاله على أبرز معالم الاختلاف ، بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية ، مع مناقشة موضوعية لدور مؤسساتنا الثقافية ، في هذا الصراع الحضاري ، وبيان عناصر الإيجاب والسلب ، في تقييم الدور الذي تقوم به ، ثم عرضنا لبعض بشائر القرآن والنبوة ، بأن المستقبل للإسلام .

ولما كان المستقبل للإسلام ، يصنعه حملة رسالة الإسلام ، وفي مقدمتهم المجاهدون ، كان لا بد من الحديث عن المجاهدين ، وأهل الذكر ، في ساحات الجهاد .. خاصة ونحن نرى صراع الإسلام مع أعدائه ، متفجراً في شتى بقاع العالم ... كما كان لا بد من الحديث عن القنوت ، لحاجة صناع المستقبل للقنوت إلى الله ، والارتباط به ، وخاصة في النوازل ، ومواجهة التحديات ، التي يصارعونها ، وهم يصنعون مستقبل الإسلام المشرق بإذن الله .

ومما يشكل الركن الأساس ، في صياغة مستقبل الإسلام ، تطبيق الشريعة الإسلامية ، بل هو أهم ثمرات الجهود ، التي تبذل في ميادين الجهاد وغيرها ، ونحن اليوم في عالم اختلطت فيه المجتمعات ، وتعددت فيه الملل والثقافات ، حتى في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية ، فكان السؤال الذي لا بد من بيان الجوانب المتعلقة به ، وهو ما يتعلق بتطبيق أحكام الشريعة في المجتمعات ، التي تعدد فيها الملل والثقافات . والحمد لله في البدء ، وفي الختام .

الدكتور أحمد علي الإمام

رمضان ١٤١٥ هـ

بشائر مستقبل العالم الإسلامي في وجه التحديات الحضارية المعاصرة

منذ بزوغ فجر الرسالة ، والإسلام يعيش في دورات من الصراع ، والتداول الحضاري .. يواجه التحديات الثقافية والاجتماعية ، ويتفاعل مع التجارب الإنسانية من حوله . يدافع الكفر ، ويدعو لتحرير العباد ، وتنمية المجتمعات ، ويجادل بالحسنى ، متميزاً بعقيدته ، وشموخ بنيانه الحضاري المتفرد .

والوقوف على التحديات ، المعاصرة منها ، والمستقبلية ، يقتضي وقفة مراجعة وتقويم ، لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، فنبين عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب والقصور ، التي لحقت بها ، حتى يستقيم أمرها ، وتعتدل في وجه التحديات الحضارية المعاصرة .

ولعل من عناصر الإيجاب في ثقافتنا ، ذلك الاهتمام بالرصيد الهائل للمسلمين - علماً نظرياً ، وعملاً تطبيقياً - في مجالات العلوم ، والمعرفة ، والثقافة ، وما صاحب ذلك من اجتهاد فقهي متجدد ، يحيط بالواقع ، ويسعى لمواجهة المشكلات المستجدة . وفي مقابل هذا الكسب الإيجابي ، فإن واقعنا الثقافي اليوم ، يعاني من مشكلات التبعية والتقليد ، والفهم القاصر للذات ، وجهود سلفنا العظام ، فهماً لا يبلغ الشمول والتكامل ، ولا يراعي الوحدة الموضوعية في شرح النصوص ، ويهمل متغيرات الحاضر والعصر .. كما أن بعض المؤسسات الفكرية والثقافية ، وبعض أفرادنا وجماعاتنا ، انحرفت وراء الغرب ، تنادي بتجزئ الإسلام وتبعيذه ، بين إسلام أصولي ، وإسلام سياسي ، وإسلام صوفي ، وتفصل بين الدين والسياسة ، وتخذل روح الجهاد ، والاجتهاد ، والتأصيل ، متناسية أن الدين كلمة شاملة ، جامعة للمعاني العملية ، التي تقيم الحياة الدنيا والآخرة .

وإذا كان المسلمون قد عانوا من الغفلة لقرون مضت ، ثم انتبهوا ، فإن الصحوة الراهنة ، قد جلبت عليهم عداءً متصاعداً ، وأدخلتهم في دائرة صراع جديد ، شكلاً ومضموناً .. وقد يكون المطلوب منا ، أن نسعى لنقل هذا الصراع المتصاعد ، إلى دائرة الحوار ، وأن نبادر إلى فهم الغرب ، وأساليبه ، وأن نعد العدة .

والثقافة الإسلامية ، وسيط اجتماعي فاعل ، وحي ، يسهم في تحقيق التنمية الشاملة ، ويؤسس لنهضة جديدة للحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة أمة منتجة ، عاملة ... معنتية بالتنمية ، والاعتماد على الذات .. حضارة أمة تعتقد جازمة ، بما تواتر لديها من الأدلة ، والنقول ، والإرهاصات ، أن لها المستقبل كله ظهوراً ، وانتشاراً ، وأن عاقبة أمرها النصر والتمكين .

تحديات .. وتميز

مقدمة في تعريف التحديات الحضارية المعاصرة وتميز الحضارة الإسلامية

١ - مفهوم الحضارة :

الحضارة ، في تعريف بعض الباحثين في علوم الحضارة ، تعني العمران ، والإنتاج الثقافي ، والنظام الاجتماعي^(١) ، فهي كما عرفها ابن خلدون : « أحوال عادية ، زائدة على

(١) - المدنية : الإنتاج المادي (في إطار وسائل الإنسان) .

- الثقافة : كل إنتاج ودراسات تتم في إطار الإنسان : سلوكه نظمه وقيمه .

- الحضارة : الإبداع البشري ، في إطار الثقافة والمدنية معاً . وهي كلها متداخلة .

- انظر : مقدمة عمر عبيد حسنة ، لروح الحضارة الإسلامية ، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، ص ١١-١٢ .

وإذا كان المسلمون قد عانوا من الغفلة لقرون مضت ، ثم انتبهوا ، فإن الصحوة الراهنة ، قد جلبت عليهم عداءً متصاعداً ، وأدخلتهم في دائرة صراع جديد ، شكلاً ومضموناً .. وقد يكون المطلوب منا ، أن نسعى لنقل هذا الصراع المتصاعد ، إلى دائرة الحوار ، وأن نبادر إلى فهم الغرب ، وأساليبه ، وأن نعد العدة .

والثقافة الإسلامية ، وسيط اجتماعي فاعل ، وحي ، يسهم في تحقيق التنمية الشاملة ، ويؤسس لنهضة جديدة للحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة أمة منتجة ، عاملة ... معنتية بالتنمية ، والاعتماد على الذات .. حضارة أمة تعتقد جازمة ، بما تواتر لديها من الأدلة ، والنقول ، والإرهاصات ، أن لها المستقبل كله ظهوراً ، وانتشاراً ، وأن عاقبة أمرها النصر والتمكين .

تحديات .. وتميز

مقدمة في تعريف التحديات الحضارية المعاصرة وتميز الحضارة الإسلامية

١ - مفهوم الحضارة :

الحضارة ، في تعريف بعض الباحثين في علوم الحضارة ، تعني العمران ، والإنتاج الثقافي ، والنظام الاجتماعي^(١) ، فهي كما عرفها ابن خلدون : « أحوال عادية ، زائدة على

(١) - المدنية : الإنتاج المادي (في إطار وسائل الإنسان) .

- الثقافة : كل إنتاج ودراسات تتم في إطار الإنسان : سلوكه نظمه وقيمه .

- الحضارة : الإبداع البشري ، في إطار الثقافة والمدنية معاً . وهي كلها متداخلة .

- انظر : مقدمة عمر عبيد حسنة ، لروح الحضارة الإسلامية ، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، ص ١١-١٢ .

الضروري من أحوال العمران » ، زيادة تنفاوت بتفاوت الرفه ، وتفاوت الأمم ، في القلة والكثرة ، تفاوتاً غير منحصر .. « (١) . أو كما عرفها ول ديورانت هي : نظام اجتماعي ، يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي (٢) . وقد درس الدكتور أبو زيد شلبي التعريفين ، واستخلص منهما أن الحضارة هي :

« مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم ، في نواحي نشاطها الفكري ، والعقلي ، من عمران ، وعلوم ، ومعارف ، وفنون ، وما إلى ذلك ، والترقي بها في مدارج الحياة ومسالكها ، حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها ، وإمكاناتها المختلفة » (٣) .

٢ - الحضارة الإسلامية :

والحضارة الإسلامية ، ذات نسب عريق في الحضارات ، سبقاً ، ورسوخاً ، وشمولاً ، ومحتوىً ، لكونها بحكم نسبتها إلى الإسلام ، متمسكة بالخلود ، ولا تزال آثارها المادية والمعنوية باقية ، وإسهاماتها في الحضارة الكونية ، والنهضة العلمية المعاصرة ، ظاهرة (٤) .

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل « في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول » .. وفي فصل : « انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة » ، يقول ابن خلدون : « والحضارة إنما هي تقنن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة ، في وجوه ومذاهب ... »

وراجع طبقات الأمم ، لأبي القاسم صاعد الأندلسي ، ص ٦٥ و ٦٦ - وانظر تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٠ .

(٢) انظر ، قصة الحضارة ، عناصر الحضارة (وموامل تكوينها) ، ول ديورانت ، ص ٣٠ ج ١ .

(٣) انظر : د . أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ط ٦ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٢٧٣ - ٢٧٩ . وكتاب أثر الشرق في الغرب ، للمستشرق الألماني جورج يعقوب ، ط مطبعة مصر ، ١٣٦٥ هـ . ود . علي عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

وقد أحال د . شلبي على مقدمة ابن خلدون ، فصل : « في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول ، ونهضة الحضارة » ، ول ديورانت ، ج ١ ، ص ٣ .

(٤) أول صورة تبث فيها الثقافة ، هي الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً ، إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته ، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه موارداً لطعامه .. في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة ، أعني بها موارداً محققاً من ماء و طعام ، ترى الإنسان يبني لنفسه الدور ، والمعابد ، والمدارس ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج .. انظر : قصة الحضارة ، ص ٥ / ج ١ ، وراجع طبقات الأمم ، ص ٦٥ .

وقد قامت الحضارة الإسلامية على ركن شديد من القيم الأصيلة ، الراسخة ، والحارسه ، لأسباب الرقي البشري ، والرعاية لكرامة الإنسان ^(١) ، وحرمانه ، من التوحيد ، والعدل ، والإحسان ، والمساواة ، والإصلاح ، والصدق ، والعفاف ، والأمانة ، والعلم ، والرحمة ، والرفق ، وحسن الخلق ، والإخلاص ، والتجرد ، والعمل الصالح .

ولا عجب ، إذ هي وليدة التربية الإيمانية ، فردية وجماعية ، بين مكة والمدينة ، فاقامت صوراً مشرقة ، حيث أقامت الحضارة الفكرية ، التي ظهرت في تأليف العلماء ، المبثوثة في الأنحاء ، وقد سبقت غيرها في أبحاث العلوم الشرعية ، والاجتماعية ، والطبيعية ، واللغوية ، مع العناية بالعمران ، والجمال التوحدي ، في المساجد ، والجامعات ، والمدارس ، والقصور في المدن الإسلامية العريقة ، في مشارق العالم الإسلامي ، ومغاره ، وأسست أركاناً ، وقوائم راسيات للعلم التجريبي ، اعتمدت عليها المؤسسات والجامعات الأوروبية ، وقامت عليها النهضة العلمية المعاصرة ^(٢) .

(١) جوستاف لويون : حضارة العرب ، مطبعة الطليبي ، ١٣٦٤ هـ .. يقول جويستان لويون : ما عرف التاريخ فاتحاً ،

أعدل ولا أرحم ، من العرب المسلمين ، في فتوحاتهم .

(٢) انظر مختصر التاريخ العام ، ج. هـ. ويلز ، ص ٣٠٢ .

إذا كان القارئ ، يتخيل أن موجة الإسلام ، قد غمرت بهذا الفيض الذي فاضته ، بعض مدنيتي شريفة ، فارسية ، أو رومانية ، أو يونانية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً ! فإن الإسلام قد ساد ، لأنه أفضل نظام اجتماعي ، وسياسي ، تمخضت به الأعصر .. و أن الإسلام قد ساد ، لأنه وجد أمماً استولى عليها الضمول ، وكان فاشياً فيها الظلم ، والنهب ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلما جاء الإسلام ، لم يجد إلا حكومات مستبدة ، ومستأثرة ، منقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، فاندخل الإسلام في أعمال الخلق ، أوسع فكرة سياسية عرفها البشر ، وقدم إلى البشرية ، يد المعونة .

وانظر حاضره العالم الإسلامي : لوثراب ستودارد ، (ترجمة عجاج نويهض) ، علق عليه شكيب أرسلان (وانظر تعليقه ، أو مقاله فيه : لماذا الإسلام راق بذاته ، والشعوب الإسلامية غير راقية ؟)

كاد يكون نبأ نشو الإسلام ، النبأ الأعجب ، الذي يؤن في تاريخ الإنسان . وعلى شدة هذه المكاره ، يعد نصر الإسلام ، نصراً مبيئاً عبيباً ، إذ لم يكن يعرض على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الإسلام خفاقة ، من البرانس حتى مهالها ، ومن صحاري أوسط آسيا ، حتى صحاري أوسط إفريقيا .

ثم انظر : العوامل المساعدة على ذلك : أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة ، وشرعيته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر ، في ذلك الوقت .

٣ - بين الحضارة الغربية المعاصرة والحضارة الإسلامية :

(١) الحضارة الغربية في الأساس ، حضارة صناعية تقنية ، فاقدة للتقوى ، تحولت إلى حضارة استكبارية باطشة ، تركت الجدال بالحسنى ، وجاءت للناس على متن المقاتلات ، والمدرعات ، تمشي بينهم بالتقتيل ، والتشريد ، والاضطهاد ، والإبادة ، ويشهد لذلك الحرب العالمية الأولى ، والثانية ، وأخيراً ، النظام العالمي الجديد .

أما حضارة الإسلام ، فتقوم على الجمع بين التقوى والتقانة ، دون تعارض أو تنافر .

(ب) والحضارة الغربية ، من ناحية أخرى ، تقوم على تمجيد العقل ، والاعتماد عليه وحده ، بينما تقوم الحضارة الإسلامية على التوفيق بين العقل والوحي ، فليس فيها خصام ، أو فصام بين الدين ، والعلم ، كما كان في أوروبا ، بل يتواءم العلم والإيمان : الإيمان القائم على العلم .. والعلم المؤمن ، الداعي للإيمان .

(ج) الحضارة الإسلامية ، تقوم على السلام العالمي ، والأمن الداخلي ^(١) ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الانفال : ٦١) ﴿ لَا يَنْهَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة : ٨) . وفي الحديث النبوي : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(٢) و « ... المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ^(٣) .

(١) الإشارة إلى عدم الإكراه في الدين ، والسماح لغير المسلمين بوضع محترم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

بل تتجاوز حضارة الإسلام ذلك ، إلى الاتساق ، والانسجام ، والتوافق ، والتوازن ، مع نظام الكون والحياة ، والإنسان ^(١) ، حيث أن الحقيقة الدينية في خلق الإنسان ، وتنام إسلامه : إعمار الكون ، بالصلاح ، والفلاح ، بعد تسخير له : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ فِيهِ بَآرٌ مَّرُومٌ وَلِتَسْتَغْوِي مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿ (الجنانية : ١٢-١٣) .

(د) يتجلى هدي الإسلام ، في تسخير الكون للإنسان ، ليؤدي شكر النعمة ، بينما تسعى الفلسفة المادية ، لتسخير الإنسان ، وتعييده للكون ، وظاهر الحياة الدنيا ^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصراع بين حضارة الإسلام ، وحضارات غيره ، صراع مستمر ، إلا أن الحقيقة ، التي يجب أن تبقى ناصعة ، واضحة ، بينة ، هي أن العاقبة لأهل التقوى ، والبقاء للحق ، والخير ، والبر ، وما ينفع الناس : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧) .

- (١) يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشر ، في روح الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢ - ٢٣ :
امتازت حضارة الإسلام بالانسجام ، والأمن ، و ليس ذلك مقصوراً على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين ، تتكلف بهما العناصر والطبقات ، وتتقى بهما ولايات الحروب الاجتماعية ، ولكن الانسجام ، والأمن ، اللذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية ، يبتدئان انسجاماً وأمناً داخليين ، فريدين تتكلف فيهما المادك الإنسانية ، وتتقى بهما ولايات داخل النفس الإنسانية ، هي ولايات الحيرة ، والاضطراب ، وتنازع الأفكار والعواطف ، وحرب بين المعقولات والمقائد ، وتقسيم بين الروحانيات ، والماديات ، ومقتضيات المصالح ، وواجبات الأخلاق .
- (٢) يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة ، في تقديمه لكتاب روح الحضارة الإسلامية ، ص ٢ : ولعل من أهم الخصائص ، التي امتازت بها الحضارة الإسلامية ، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان ، الذي أحدث التفاعل ، بين علماء الوحي ، وتطلعات العقل ، وأشواق النفس ، بحيث ارتقى بموقع ، ووظيفة الإنسان ، من مجرد وسيلة ، وأداة للإنجاز الحضاري ، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية ، التي يبتدعها ، وسائل مسخرة لخدمته ، وتحقيق إنسانيته ، والارتقاء بموقعه ، وجعله مسخراً للكون ، بدل أن يكون مسخراً له ، فهو إنسان المكلف ، وفي الوقت نفسه ، الإنسان المكرم ، ولذلك كان بين تعاليم الوحي ، وتطلعات العقل ، تواعد ، والتقاء ، فأنشأ ذلك كله ، إنسانية الحضارة الإسلامية ، التي رسم مساراتها ، وحدد أهدافها الوحي ، وحقق إنجازاتها في المستويات المتعددة ، وابتكر وسائلها ، الإنسان المكلف .. قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك : ١٤) .. فالهدي وبيانه ، من الوحي ، والاستدلال ، والبرهان ، من كشف العقل ، قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (فصلت : ٥٣) ، فالوحي يحدد الأهداف ، والعقل يكشف السنن ، ويبدع الوسائل ، التي تحقق الأهداف .

الخطر المخيف

خطر الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ، يكون محدوداً لو بقي المسلمون معتمدين بدينهم ، متميزين بأصالتهم ، ولكن فقدان هذا ، هو النذير بالخطر ، لأنه يعني فقدان الانتماء ، والإحساس بالذات . . والمسلمون إنما يدركون ذاتهم من طريقين :

(أ) من طريق وحدتهم ، التي تكونها المفاهيم ، والتعاليم ، والقيم المشتركة .

(ب) ومن طريق مخالفتهم للآخرين ، والتي تنشأ عن المغايرة ، والمفارقة في الاعتقاد ، والعبادة ، والإخلاص .

وهذا التمييز والتمايز ، الذي يجب أن يبقى ، هو الأمانة التي تلقاها كل جيل عن قبله ، ولا بد أن يحملها إلى من يجيء بعده ، ليبقى مستعراً ، متقدماً ، يواجه كل التحديات ، والحضارات ، على مر الأزمان ، إلى يوم تبديل الأرض غير الأرض والسموات^(١) .

فإن فقد هذا الإحساس ، وزال هذا التمييز ، واجهنا خطراً أكبر ، يتهدد أصلتنا ، ويهدد أركان بقائنا^(٢) . ذلك الخطر ، يتمثل في تقليدنا ، وتبعيتنا للملل ، والحضارات الأخرى ،

(١) انظر : د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) ذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشر ، في روح الحضارة الإسلامية ، ص ٦٨ - ٦٩ ، أن حضارة الإسلام ، المعتبر بها ، هي الصورة البقطة الفكرية . والهمة الإنشائية ، التي تولدت من حرارة إيمان المسلمين ، في الأجيال الأولى ، فمكنتهم من أن يخرجوا عن المحيط الإقليمي ، إلى المحيط العالمي ، وأن يتناولوا المعارف كلها ، بداع من إيمانهم الديني ، ولغاية تبيد في عظمة دينهم . يستباح الفداء فيها ، والهلاك من أجلها ، فطلبوا المعارف وتناولوها ، وجمعوا بين أطرافها ، وعضعوها ، وصنّفوها ، وتحكموا فيها ، فطورت على أيديهم . وتواصلت ، وتقابست ، وتصل ما بينها وبين دينهم ، فانطبعت بشخصيتهم ، وتأثرت بوضائعهم الفكرية الأساسية ، التي هي أوضاع الفكرة الدينية ، التي أنشأ الإسلام عليها أفكارهم ، والسكينة الإيمانية ، التي رتبت دعوة الإسلام عليها نفوسهم . هذه الحضارة ، هي التي ولدت ، ما ازدهر به التاريخ الإسلامي ، من المعارف ، والآداب ، والصنائع ، والفنون ، فكان المسلم ، الذي هو منشئ تلك الآثار الباهرة ، من الحضارة ، سيدها ، ومعمرها ، بإيمانه القوي ، وروحه المتقدة ، وفكره المتوثب ، وخلقه الطاهر ، وسلوكه الأمين .

وقد حذرنا رسولنا الكريم ﷺ من خطورة التقليد والتبعية لغيرنا ، فقال : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، وقد ورد هذا الحديث بروايتين ، بإحدهما : قالوا : اليهود والنصارى ؟ وفي الأخرى قالوا : الفرس والروم ؟ فاقروهم .. (١) .

إذ حيث كان تقليدهم في العبادات ، كانت الإشارة إلى اليهود والنصارى ، وحيث كان تقليدهم في الحضارة ، والثقافة ، كانت الإشارة إلى الفرس والروم .

توجيه الصراع الحضاري

قدر الله أن نكون أمة الرسالة الخاتمة ، ولذلك فإن أعدى من عادانا ، في الماضي ، هم أهل الكتاب ، ومن والاهم على هذه المعادة ، ممن قادوا حملات الحروب الصليبية ، من العواصم الأوروبية ، على المسلمين ، وهكذا كانت بداية الغرب في اتصاله بالعالم الإسلامي ، عن طريق المواجهات العسكرية أولاً ، ثم الإدارة الاستعمارية ، أو الاستخارية ثانياً ، فأصاب المسلمين من جراء ذلك غزو عسكري سياسي ، واستغراب فكري ثقافي ، واجتماعي ، ونهب اقتصادي .

ثم لما نهض المسلمون ، وبدأوا مسيرة العودة إلى الجذور ، عاد خصومهم للحرب

فلما تحولت به الحال ، عن تلك المعاني السامية ، بقيت مظاهر الحضارة ، ومعالها ، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى ، ولكن المسلم لم يبق سيدها ، ومعمرها ، وإن كانت تنشأ في أرضه ، ويده ، وعن معرفته ، لأنه أصبح أسيرها . وعامل فسادها ، وخرابها ، لما فقد ما كان عنده من قوة في الإيمان ، والروح ، والفكر ، والخلق ، والسلوك .

(١) رواء البخاري ، ونصه : « لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع » قيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : « ومن الناس إلا أولئك » .

وقد حذرنا رسولنا الكريم ﷺ من خطورة التقليد والتبعية لغيرنا ، فقال : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، وقد ورد هذا الحديث بروايتين ، بإحدهما : قالوا : اليهود والنصارى ؟ وفي الأخرى قالوا : الفرس والروم ؟ فاقروهم .. (١) .

إذ حيث كان تقليدهم في العبادات ، كانت الإشارة إلى اليهود والنصارى ، وحيث كان تقليدهم في الحضارة ، والثقافة ، كانت الإشارة إلى الفرس والروم .

توجيه الصراع الحضاري

قدر الله أن نكون أمة الرسالة الخاتمة ، ولذلك فإن أعدى من عادانا ، في الماضي ، هم أهل الكتاب ، ومن والاهم على هذه المعادة ، ممن قادوا حملات الحروب الصليبية ، من العواصم الأوروبية ، على المسلمين ، وهكذا كانت بداية الغرب في اتصاله بالعالم الإسلامي ، عن طريق المواجهات العسكرية أولاً ، ثم الإدارة الاستعمارية ، أو الاستخراجية ثانياً ، فأصاب المسلمين من جراء ذلك غزو عسكري سياسي ، واستغراب فكري ثقافي ، واجتماعي ، ونهب اقتصادي .

ثم لما نهض المسلمون ، وبدأوا مسيرة العودة إلى الجذور ، عاد خصومهم للحرب

فلما تحولت به الحال ، عن تلك المعاني السامية ، بقيت مظاهر الحضارة ، ومعالها ، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى ، ولكن المسلم لم يبق سيدها ، ومعمرها ، وإن كانت تنشأ في أرضه ، ويده ، وعن معرفته ، لأنه أصبح أسيرها . وعامل فسادها ، وخرابها ، لما فقد ما كان عنده من قوة في الإيمان ، والروح ، والفكر ، والخلق ، والسلوك .

(١) رواء البخاري ، ونصه : « لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع » قيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : « ومن الناس إلا أولئك » .

العدوانية ، بأوهى الأسباب والحجج ، وبمعايير مزدوجة في التعامل ، خاصة بعد اختفاء التحدي الذي كان يمثله الاتحاد السوفيتي ، في مواجهة أمريكا ، زعيمة النظام الرأسمالي .

وقد صارت هذه القوة العسكرية ، هي سبيل الحضارة الغربية الأوحـد في إسكات صوت المسلمين ، إن طلبوا رقياً ، أو سعوا إلى الالتزام بشريعتهم ، أو أرادوا إصلاح حالهم ، أو تحرير قرارهم ، أو تصحيح انتمائهم ، وذلك بعد ما كانت من قبل تستخدم قوتها الاقتصادية ، ومعوناتها ، وقمعها ، في فتنة المسلمين ، وصدهم عن سبيل الله .

هذه العلاقة بيننا وبين الغرب ، علاقة متخلفة في الحوار الفكري ، والصراع الحضاري ، لذلك قد يكون المطلوب : العمل على توجيه هذا الصراع ، من صراع العسكر ، وتحويله ، إلى صراع الحوار . . نصرفهم عن علاقة الحمية والقتال ، إلى علاقة التـحاور ، والجدال بالحسنى ، فإن استطعنا ذلك ، نكون قد حولنا صراع الحضارات ، من التقاتل ، والتحارب حول الموارد ، ورغيف العيش ، إلى صراع حول الثقافة والتحاور .

غير أن هذا التحويل ، وهذا التوجيه ، يتطلب منا أموراً عدة ، لعل أهمها :

(أ) تحديد القضايا والموضوعات ، التي يصب عليها ، ويدور حولها ، الحوار .

(ب) الاجتهاد في تحديد وتقويم الوسائل ، التي نقيم بها الحجة عليهم .

(جـ) أن نهتم بالمثال ، والأ نموذج الفعلي ، لا أن نعتمد مجرد المقال .

(د) أن نكون عالمين بما لدى غيرنا ، وخصوصاً الدين المقارن ، وقد سن لنا الرسول

ﷺ هذه السنة ، فيما أخرجه الإمام أحمد عن عدي بن حاتم قال : (دخلت على رسول

الله ﷺ فقال : « يا عدي أسلم تسلم » ، فقلت : إني من أهل دين ، فقال : « أنا أعلم

بدينيك منك » ، فقلت : أنت أعلم بديني مني؟ قال « نعم ، ألسـت من الركوسية (١) ،

(١) الركوسية : ديانة بين النصارى ، والصابئين .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟، قلت : بلى ، قال : « هذا لا يحل لك في دينك » . قلت : نعم . فلم يعد بعد أن قالها ، فتواضعت لها (. الحديث (١)) . . . وهو دال على أن العلماء المسلمين ، ينبغي أن يكونوا أعلم بما عند المخالفين ، وخاصة من ابتلي بهذه المهمة .

(هـ) إعداد دعاة منا ممن عاش في الغرب ، وعرف لغاتهم ، ومصطلحاتهم ، وطرائقهم في التفكير ، ومداخلهم في التعامل ، ليؤدوا مهمة الحوار ، والتواصل الثقافي والحضاري .

(و) أهمية إعداد العدة ، وامتلاك القوة ، والتقدم العلمي ، والتفرد الحضاري ، والتمييز الأخلاقي ، لنفرض على « الآخر » احترامنا ، حتى يسمع كلامنا ، بعد إزاحة العوائق التي يضعها بيننا وبينه ، بل بيننا وبين قومنا .

عناصر الإيجاب والسلب في مواقفنا ومؤسساتنا الثقافية

حتى نقف على التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية - كما أسلفنا - لا بد من وقفة مراجعة ، وتقويم لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، نصحب مراكز الثقافة ، وأدواتها ، وقدراتها ، وطاقاتها ، لمواجهة التغيرات ، فنبين عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب ، والقصور ، وبيان أسبابها ، في محاولة للخروج منها ، وتصحيحها ، وتقويمها ، لتعتدل ، وتستقيم في وجه التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية .

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن كثير ، ج ٤ / ١٢٢-١٢٩ ، وتفسير ابن كثير ، ج ٣ / ٢٤٩-٣٥٠ .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟، قلت : بلى ، قال : « هذا لا يحل لك في دينك » . قلت : نعم . فلم يعد بعد أن قالها ، فتواضعت لها (. الحديث (١)) . . . وهو دال على أن العلماء المسلمين ، ينبغي أن يكونوا أعلم بما عند المخالفين ، وخاصة من ابتلي بهذه المهمة .

(هـ) إعداد دعاة منا ممن عاش في الغرب ، وعرف لغاتهم ، ومصطلحاتهم ، وطرائقهم في التفكير ، ومداخلهم في التعامل ، ليؤدوا مهمة الحوار ، والتواصل الثقافي والحضاري .

(و) أهمية إعداد العدة ، وامتلاك القوة ، والتقدم العلمي ، والتفرد الحضاري ، والتمييز الأخلاقي ، لنفرض على « الآخر » احترامنا ، حتى يسمع كلامنا ، بعد إزاحة العوائق التي يضعها بيننا وبينه ، بل بيننا وبين قومنا .

عناصر الإيجاب والسلب في مواقفنا ومؤسساتنا الثقافية

حتى نقف على التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية - كما أسلفنا - لا بد من وقفة مراجعة ، وتقويم لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، نصحب مراكز الثقافة ، وأدواتها ، وقدراتها ، وطاقاتها ، لمواجهة التغيرات ، فنبين عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب ، والقصور ، وبيان أسبابها ، في محاولة للخروج منها ، وتصحيحها ، وتقويمها ، لتعتدل ، وتستقيم في وجه التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية .

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن كثير ، ج ٤ / ١٢٢-١٢٩ ، وتفسير ابن كثير ، ج ٣ / ٢٤٩-٣٥٠ .

أولاً: عناصر الإيجاب :

(أ) للمسلمين رصيد هائل - علماً نظرياً ، وعملاً تطبيقياً - في مجالات العلم ، المعرفة ، والثقافة ، والحضارة .

(ب) المسلمون هم أول من أقام المكتبات ، وأنشأ مراكز الترجمة ، والمعاهد الأهلية ، والشعبية ، وكانوا رواداً في كل موضوعات العلوم ، وقد بذلوا الجهود العلمية ، والمعرفية ، وعرفوا بالتسابق العلمي ، وتقدير النابغين فيه ، مهما كان اختلافهم ، وإن كانوا من غير المسلمين ، فقد احتوت كتب طبقات العلماء ، على تراجم عدد من العلماء ، من غير المسلمين ، في العلوم الطبية ، والهندسية .

(ج) كانت المحاضر ، والجامع الجامعية ، في حواضر العالم الإسلامي ، تعلم إلى جانب العلوم الشرعية ، والعربية ، العلوم الطبية ، والهندسية ، وكانت المحاضر الأندلسية ، تستقبل الطلاب من أوروبا وغيرها .

(د) لم يعرف المسلمون هذا الانفصال بين ما يسمى بالعلوم العصرية ، والعلوم الدينية ، إلا على آخر عهود السلاطين العثمانيين ، وكان هذا الانفصال من أخطر ما أثر في تخلف المسلمين علمياً .

(هـ) ومن إيجابيات حضارتنا ، أن العلماء ، والفقهاء - على بعض الفترات - انفتحوا للعصر ، والحال ، بفهم للواقع ، وفقه للمرحلة التي يعيشونها ، مع سعة أفق ، وعمق إدراك ، وصاروا يعالجون المشكلات المستجدة ، والقضايا المتجددة ، والحوادث العارضة .

(و) يطبقون الشريعة ، وفق مقتضيات العصر والحال ، مع التفريق بين الشريعة ، والتطبيق الفقهي ، ومراعاة ظروف المجتمع ، ولهذا كان استخدام العرف .. ومن المعلوم عند أهل أصول الفقه ، أنه لا ينكر تغير الأحكام والفتوى ، لتغير الأزمنة ، والأحوال ، والعوائد ،

والنيات .. ومن طريف ما يذكر هنا ، حكاية العلامة زروق الفاسي (ت ٨٩٩) في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني ، أن الشيخ أبا محمد بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) ، صاحب الرسالة المشهورة في فقه المالكية ، انهدم حائط بيته ، وكان يخاف على نفسه من بعض الطوائف ، فربط في موضعه كلباً ، اتخذه للحراسة ، فقبل له : إن مالكا يكره ذلك ! فقال رحمه الله : لو أدرك مالك زمانك ، لاتخذ اسداً ضارباً !^(١) .

(ز) ولابد هنا من إشارة إلى الومضات ، والإضاءات التجديدية ، والاجتماعية ، بين عدد من قادة الحركات ، والمؤسسات الإسلامية ، في عالمنا المعاصر ، مما يبشر بمستقبل زاهر .

ثانياً : عناصر السلب :

إن كانت تلك هي بعض عناصر الإيجاب في مواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، وفي عصرنا ، وعالمنا ، فإن من أخطر عناصر السلب ، ومظاهر القصور :

(أ) عدم استكمال جهود التاصيل ، والتعريب ، في مؤسساتنا العلمية ، مع مضي هذه العقود من سنوات استقلالنا ! مما يعني ضعف إرادة البناء ، والتبعية الثقافية للغرب^(٢) .

(١) انظر : شرح العلامة زروق على الرسالة : ج ٢ ، ص ٤١٤ ، ط دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ . وانظر : عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية . د. يوسف القرضاوي ، ص ١١٣ ، ط دار الصحوة ، ١٤٠٦ هـ .

(٢) يقول الشيخ محمد الفاضل عاشور ، في روح الحضارة ، ص ٦٣ : لقد فقدت أمة ، غير الأمة الإسلامية ، استقلالها ، ثم استرجعت ، ولكنها لم تسترجع كلها روح حضارتها ، وثقافتها ، لتبني عليها مستقبلها ، بل إن أكثرها جعل من استقلاله ، اتجاهاً جديداً نحو تقليد غيره ، فلم يكن استقلاله ليحدث أثراً في تاريخ الحضارة الإنسانية ، إذ قصر على أثره المادي في السياسة والاقتصاد ، فكان شأن هذه الأمم ، الشرقي منها ، والغربي ، شأن العائد على غيره في شؤون الفكر ، والثقافة ، وطوايع الحضارة . فليست نهضة اليابان ، نهضة بوزية ، ولا نهضة الصين ، نهضة كونفوشية . ولا نهضة اليونان ، بعد استقلالها منذ القرن الماضي ، نهضة بينظلية ، ولا إفلاطونية . ولا ارسطوطاليسية ، بل ولا يونانية ، على الحقيقة ، بأي حال من الأحوال . فهل إن شأن الإسلام ، سيكون مقصوراً على هذا الوضع ، أو أن حضارة إسلامية الروح ، وثقافة إسلامية الطابع ، ستبوان ، من بين ذلك القدر المشترك ، المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية ، الناهضة ، المستقلة ؟

(ب) الاشتغال بدراسة اللغات الأوروبية ، في برامج التعليم العالي ، على حساب حاجات أمتنا الفعلية ، وأولوياتنا الحضارية .

(ج) عدم التخطيط للمستقبل ، بما يكافئ حجم الأخطار ، التي تواجهها أمتنا ، وما زال ما يسمى بالعالم الثالث ، ونحن جزء منه ، ينفق مالا يزيد عن ٣٪ فقط مما ينفق ، على الخطط ، والبرامج المستقبلية ^(١) .

(د) وما يؤثر سلباً على علاقتنا الثقافية ، ضعف التبادل التجاري ، والمعاملات بين الدول الإسلامية ، حيث لا تتجاوز نسبة ١٠ ٪ ، بينما تبلغ نسبة ٩٠٪ مع الدول الغربية ، مع ما عرفت به من احتكار ، واستغلال لمنتجاتنا الإسلامية ، فضلاً عن عدم قيام سوق إسلامية مشتركة ، في مواجهة السوق الأوروبية المشتركة ، وغيرها من التكتلات الاقتصادية الأخرى .

(هـ) العلاقات الدبلوماسية ، بصورتها القديمة ، صارت متخلفة .. فالعلاقات بين الدول ، حوار ثقافي في المقام الأول ، حتى في العلاقات الاقتصادية ، والتبادل التجاري ، وهو حوار كامل ، قد يعبر عنه المثقفون بصورة شاملة ، تؤدي إلى حسن الفهم المشترك ، والتواصل .

(و) التبعية الفكرية ، والتقليد ، والكتب المدرسية المذهبية ، التي سادت في الفكر الإسلامي ، وعطلت تجديد الفكر .

(ز) الاشتغال بالبحوث النظرية ، النمطية دون أصالة ، أو تجديد ، أو اجتهاد ، وهي بحوث آلية ، لا تبعث روحاً ، ولا تزيد عن كونها تمارين رياضية .. وشيء عجيب

(١) مجلة المستقبل الإسلامي ، العدد الأول ، رجب ١٤١١هـ - يناير ١٩٩١ م ، لندن ، ص ٧ ، مقال الافتتاحية ، بقلم أحمد عثمان التويجري .

أن مؤسسات كثيرة في التعليم ، العالي خاصة ، تخرج حملة شهادات عليا ، يترفعون ،
ويترقون في سلك الأستاذية ، دون أن يقدموا إضافات علمية مقدرة ، ولكن :

أما الديار فإنها كديارهم وأرى نساء الحي غير نسائه

(ح) فهم بعض مؤسساتنا ، وأفرادنا ، وجماعاتنا ، للتراث ، وجهود سلفنا العظام ،
فهماً قاصراً ، لا يبلغ الشمول ، والتكامل ، ولا يراعي الوحدة الموضوعية في فهم النصوص ،
ولا يراعي الحاضر ، والعصر ، الذي نحن فيه ، بتدبر ، وتبصر ، وفقه .

(ط) استغلال الغرب لبعض المقصرين من أفراد ، وجماعات ، واستخدامهم
لصالحه ، على حساب المسلمين ، تعطيلاً لجهودهم ، في العودة ، وكسب الصراع ، وإيقافاً
لمسيرتهم ، حتى ساقهم ، بكثرة الطرق والإثارة ، إلى مواطن الخلاف ، يؤجج نار الفتنة بين
المسلمين ، لصرفهم عن طريق النصر ، والعزة ، والتمكين ، بل ينعطف بهم عن هم التمكين ،
والتفاعل مع الواقع ، والعصر ، إلى الثرثرة ، والجدل ، والمراء . . وبسبب ذلك مازلتنا نتناظر
حول المشابهات ، ونتجادل حول غسل ، أو مسح قدم ، حتى صار بعضنا لا يملك من
الأرض ، موضع قدم !!

(ي) انحراف بعض المؤسسات الفكرية ، والثقافية ، وبعض أفرادنا وجماعاتنا ، وراء
الغرب ، تنادي بتجزئ الإسلام ، وتبعيضه بين إسلام أصولي ، وإسلام سياسي ، وإسلام
صوفي ، فضلاً ، بين الدين والسياسة ، وتخذيلاً لروح الجهاد ، والاجتهاد ، والتأصيل ،
بينما الدين كلمة شاملة ، جامعة للمعاني ، العلمية والعملية ، التي تقسيم الحياة
الدنيا ، والآخرة .

(ك) هجر كثير من المؤسسات الثقافية ، في العالم الإسلامي - خاصة تلك التي
تدرس وتبث العلوم المدنية والطبيعية - للقرآن ، مخاصمة له ، مجافية إياه ، مبعدة له عن

تلك العلوم ، والمعارف .. فندرس هذه العلوم ، كان ليس للقرآن فيها دخل ، أو علاقة ، مع أنه أنزله رب العزة ، تبياناً لكل شيء .

وهجر القرآن في واقعنا المعاصر ، اتخذ صوراً ثلاث :

الأولى : الفصل بين كتاب الله المقروء ، وكتابه المنظور ، أي الكون .

الثانية : الأمية ، وأعني بها الأمية الحضارية ، والثقافية ، والدينية ، وأمية الحرف .

الثالثة : القصور عن فهم عالمية الدعوة .

١ - الفصل بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور :

الفصل بين كتاب الله المقروء ، وهو القرآن ، وكتاب الله المنظور ، وهو الكون ، يشكل في خارطة همومنا اليوم ، تحدياً كبيراً .

ولابد من إنهاء هذا الفصام ، وإزالة الخصاص ، بين المصحف والكون ، في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، حتى يكون الذي يتلو القرآن ، ناظراً في الكون ، يتأمل خلق السموات والأرض ، ويتدبر سر التوافق بين الأجرام ، والتوازن بين الكواكب ، ليهتف في الآخر موقناً ﴿ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٨) ، ﴿ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ ﴾ (آل عمران : ١٩١) ، ويدرك سر وجوده : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

لهذا ندب القرآن قارئيه ، بالسير في الأرض ، تنقيباً للخيرات ، وطلباً للارزاق ، وإعماراً للكون ، واعتباراً بسنته ، وقوانينه ، ونواميسه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧-١٣٨﴾ (آل عمران : ١٣٧-١٣٨) ، ﴿لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ (غافر : ٥٧) ، وهذا هو سبيلنا إن اردنا حقاً أن يكون القرآن دستورنا .

٢ - الأمية :

أن تبقى الأمية في العالم الإسلامي ، إلى يوم الناس هذا ، أمر لا ينبغي أن يكون ، لانه بدون محوها وإبعادها عنا تماماً ، لا يمكننا إقامة أي صرح لحضارتنا ، إذ أن حضارة الإسلام قام أساسها على : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق : ١-٢) ، فكانت ﴿اقْرَأْ﴾ ، أو الامر بالقراءة ، أول كلمة تنزل من السماء الدنيا ، على قلب النبي محمد ﷺ .

ولكن حقيقة الإشكال ، ليست في الأمية الحرفية ، بقدر ما هي في الأمية الثقافية ، التي لا تعي الكتاب ، وإن نظرت فيه ، لا تتدبره ، وإن قرأت آياته .. إنها الأمية التي تجعل أصحابها يقيمون حروف الكتاب ، ويضيعون حدوده ، وقد نعى الله تعالى هؤلاء فقال : ﴿اَفَلَا يَتَذَكَّرُوْنَ اَلْقُرْءَانَ اَمْ عَلٰى قُلُوْبٍ اَقْفَالُهَا﴾ (محمد : ٢٤) ، ﴿كِتٰبٌ اُنزِلْنَاهُ اِلَيْكَ مُبٰرَكٌ لِّيَذَكِّرَۤاُ بِآيٰتِهٖۤ وَلِيَذَكِّرَۤاُ لِّوَالِاٰلِٖٓٓٓٓٓ﴾ (ص : ٢٩) .. هذه هي حقيقة الإشكال : الأمية التي لا تعي الكتاب ، ولا تتدبره ، ولا تتفاعل دينياً مع مشكلات العصر .

٣ - القصور عن فهم عالمية الرسالة :

إن القصور عن فهم عالمية الكتاب ، يفضي إلى القصور في تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة في العالمين ، وقد قامت الأدلة على عالمية الرسالة منذ العهد المكي في تنزيل القرآن العظيم : ﴿وَمَا هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ (القلم : ٥٢) ﴿اِنَّ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ (التكوير : ٢٧) ،

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

وكان الرسول ﷺ تبعاً للكتاب الذي أنزل عليه ، رسولاً للعالمين ، ورسائله رسالة عالمية : ﴿ قُلْ يَتَّابِعُوا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الحج : ٤٩) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا : ٢٨) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وأمنه من ورائه أمة عالمية ، همها دولي ، ودعوتها للبشرية ، وما أخرجها الله إلا للناس ، أمة بالمعروف ، ناهية عن المنكر : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

دور التنمية الثقافية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة

ونتجاوز العناصر السلبية في مواقف بعض مؤسساتنا وجماعاتنا ، التي لا تلبث أن تزول بنهضة الأمة ، نهضة شاملة ، بكل عناصر الحضارة ، الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وهي جوانب يُعزز بعضها بعضاً ، ويُقويها ، لتسهم جميعاً في صياغة مستقبل الحضارة الإسلامية .

فالحضارة الإسلامية ، هي حضارة أمة منتجة عاملة .. معنية بالتنمية ، والاعتماد على الذات ، مع تفضيل للاستثمار الزراعي ، لكونه أكثر بركة ، ونفعاً ، واعظم تحقيقاً للأمن الغذائي، وحرية القرار ، والاستقلال .. وفي تقدير العمل ، وأهمية تداول المال ، واستثماره ،

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

وكان الرسول ﷺ تبعاً للكتاب الذي أنزل عليه ، رسولا للعالمين ، ورسالته رسالة عالمية : ﴿ قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الحج : ٤٩) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا : ٢٨) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وأمنه من ورائه أمة عالمية ، همها دولي ، ودعوتها للبشرية ، وما أخرجها الله إلا للناس ، أمة بالمعروف ، ناهية عن المنكر : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

دور التنمية الثقافية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة

ونتجاوز العناصر السلبية في مواقف بعض مؤسساتنا وجماعاتنا ، التي لا تلبث أن تزول بنهضة الأمة ، نهضة شاملة ، بكل عناصر الحضارة ، الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وهي جوانب يُعزز بعضها بعضاً ، ويُقويها ، لتسهم جميعاً في صياغة مستقبل الحضارة الإسلامية .

فالحضارة الإسلامية ، هي حضارة أمة منتجة عاملة .. معنية بالتنمية ، والاعتماد على الذات ، مع تفضيل للاستثمار الزراعي ، لكونه أكثر بركة ، ونفعاً ، واعظم تحقيقاً للأمن الغذائي، وحرية القرار ، والاستقلال .. وفي تقدير العمل ، وأهمية تداول المال ، واستثماره ،

بلغ فقهاؤنا مبلغاً عظيماً ، حتى إن بعضهم قال فيمن ضاع له مال ، أن يبذل مثله إن لزم إيجاراً في استخراجِه ، حتى لا يعطل تداوله بين الناس .. ومن الفقه ، قطع الصلاة حفاظاً على روح متقوم .

والتوجيهات النبوية ، تحض على العمل والإنتاج ، يقول ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرُسَهَا ، فَلْيَغْرُسْهَا » (١) .

وقد سلكت بلادنا الإسلامية ، مذاهب شتى في التنمية ، ولكن فشلت كل محاولة في التنمية الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، لكونها معزولة عن أصالة وتراث أمتنا .. إذ لا سبيل إلى نهضة أمتنا ، وسيادة حضارتنا ، إلا بالتماس الهدى من شرع الله .

وما دامت هذه نظرة الحضارة الإسلامية ، للتنمية والإنتاج ، فإنها إذا تقوم على أمور ، هي :

أولاً : أن الإسلام يعارض جمع الثروات في يد واحدة ، أو أيدي معدودة ، دون الناس ، لذلك نادى القرآن بتوزيع الثروات ، من الفيء ، والغنيمة ، والزكاة ، والحراج ، والعشور ، والتركات بين أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَعْيَاءِ ﴾ (الحشر : ٧) .

ثانياً : الأرض لمن يحييها ، لمحاربة الإقطاع ، الذي كان يأخذ الأرض كلها ، نظير ضرائب صغيرة .

ثالثاً : الملكية الحقيقية لله ، كما في أكثر من عشرين آية في القرآن ، نذكر منها : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : ٧) . وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (النور : ٣٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، فَلْيُفْسَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (الطلاق : ٧) .

(١) رواه البخاري ، في الأدب المفرد ، ح ٤٧٩ ، والإمام أحمد ، ١٨٢/٣ - ١٨٤ - ١٩١ .

أما الحضارة الغربية ، فإن نظرتها للثروة ، والمال ، تقوم على الرأسمالية ، التي تعطي للمالك الحرية المطلقة ، من حيث أنه هو المالك الحقيقي ، الذي أوتي على علم عنده ، ولا علاقة لله بماله .

أي مستقبل لثقافتنا في وجه التحديات المعاصرة والمستقبلية ؟

المستقبل للإسلام ، ليس هو مجرد شعار تنبناه ، محوياً بالأمل والرجاء ، إنما هو دين ، وعقيدة .. نؤمن يقيناً ، ونوقن بحزم ، أن المستقبل للإسلام ، لأن المسلم بحكم إسلاميته ، وتدينه ، يؤمن بالمستقبل ، وأن لكل مشكلة حلاً ، ولكل مسألة جواباً ، ولكل داء دواءً ، وقد قرر هذه الحقيقة كتابنا المحفوظ ، وسنة نبينا المعصوم .

١ - بشائر قرآنية :

فمن آيات النصر وبشائر المستقبل ، في القرآن الكريم ، وهي بغير حساب :
(أ) قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
رِئْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، فوراثه الأرض ، مستقبل ينتظر
الصالحين من عباد الله ، الذين التزموا دينه ، وأقاموا شرعته .

(ب) ويتأكد ذلك بظهور الإسلام ، وسيادته ، وهيمنته على الأديان كلها ، مصداق
قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

أما الحضارة الغربية ، فإن نظرتها للثروة ، والمال ، تقوم على الرأسمالية ، التي تعطي للمالك الحرية المطلقة ، من حيث أنه هو المالك الحقيقي ، الذي أوتي على علم عنده ، ولا علاقة لله بماله .

أي مستقبل لثقافتنا في وجه التحديات المعاصرة والمستقبلية ؟

المستقبل للإسلام ، ليس هو مجرد شعار تنبناه ، محوياً بالأمل والرجاء ، إنما هو دين ، وعقيدة .. نؤمن يقيناً ، ونوقن بحزم ، أن المستقبل للإسلام ، لأن المسلم بحكم إسلاميته ، وتدينه ، يؤمن بالمستقبل ، وأن لكل مشكلة حلاً ، ولكل مسألة جواباً ، ولكل داء دواءً ، وقد قرر هذه الحقيقة كتابنا المحفوظ ، وسنة نبينا المعصوم .

١ - بشائر قرآنية :

فمن آيات النصر وبشائر المستقبل ، في القرآن الكريم ، وهي بغير حساب :
(أ) قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ رِثْهَا عَبْدِي الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، فوراثه الأرض ، مستقبل ينتظر الصالحين من عباد الله ، الذين التزموا دينه ، وأقاموا شرعته .

(ب) ويتأكد ذلك بظهور الإسلام ، وسيادته ، وهيمنته على الأديان كلها ، مصداق قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

٢ - بشائر نبوية :

والسنن ، جاءت ترى ، تثبت هذه الحقيقة ، وتقررها ، وتنبه عليها :

(أ) روى مسلم وغيره ، عن ثوبان ، وشداد بن أوس ، رضي الله عنهم ، مرفوعاً :
« إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها » (١) .

(ب) وروى ابن حبان في صحيحه : « ليلعلن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ، إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر » (٢) .

(ج) وأخرج أحمد ، والدارمي ، والحاكم ، وغيرهم ، عن أبي رضي الله عنه ، قيل : قال : (كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً » ، يعني القسطنطينية) (٣) .

(د) وفي صحيح مسلم ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً » (٤) ، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ، أن أرض العرب ، كانت مروجاً وأنهاراً ، وأن دورة ستمر عليها ، لتعود مروجاً وأنهاراً .

٣ - من إرهابات المستقبل :

إن كثيراً من الإرهابات ، تنبىء بحقيقة أن المستقبل لحضارة الإسلام ، منها :

(١) القيم الروحية ، والاخلاقية ، والمعنوية ، المميزة لحضارتنا .

(١) مسلم ، ١٧١/٨ ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد .

(٢) ابن حبان في صحيحه ، ١٦٣١-١٦٣٢ .

(٣) أحمد ، ١٧٦/٢ ، والدارمي ، ١٢٦/١ ، ٤٢٢ ، ٥٠٨/٤ ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

(٤) مسلم ، ٨٤/٣ ، أحمد ٧٣/٢ ، الحاكم ٤٧٧/٤ .

(ب) امتلاك الأمة الإسلامية لمصادر الطاقة والحياة ، مع كونها وسطاً جغرافياً وتاريخياً ، يمثل سكانه خمس سكان العالم ، وما يتيح لها ذلك من إمكانيات .

(ج) اعتماد الأمة الإسلامية ، فوق ذلك ، على دينها الخاتم ، المهيمن على الأديان .. الدين القائم على العلم ، وسيادة علومه ، وحضارته .

(د) إفادة الأمة من حكم الآخرين وتجاربهم ، وحضاراتهم ، مع تفريق بين ما هو مقبول ، وما هو مردود ، وبين ما هو إسلامي ، وما هو جاهلي .

(هـ) وحدة الأمة ، وإحياء روابط الأخوة الإيمانية ، والقوة التي تنتج عن ذلك ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات : ١٠) .. وجعل النبي الكريم ، علامة الإيمان ، حب المؤمنين بعضهم بعضاً ، وكان يمثلهم يومئذ المهاجرون والأنصار ، فقال ﷺ : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » (١) .

(و) علاقات العدالة ، والإحسان ، ورعاية الحرمات ، التي هي أوثق للدلالة ، من كونها مجرد حقوق للإنسان ، تواضع عليها قبيل من الناس (٢) .

فمقام الإحسان في الدين ، في كل شيء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) .. وفي العبادة كلها ، يكون الإحسان ، كما في حديث

(١) رواه البخاري ، فتح الباري ، ج ٣٧٨٤ ، ١١٣/٧ .

(٢) وهنا تبرز نظرية ابن خلدون في مقدمته ، كما أوجزها الفاضل بن عاشور ، في روح الحضارة الإسلامية ، حين نظر ابن خلدون إلى طبيعة الدولة الإسلامية ، ومقوماتها ، وفكك بين الأصول ، التي قامت عليها ، وبين الواقع الذي آلت إليه ، ورجع إلى النفسية الفريدة للمسلم ، بين عهد السلف ، وعهد الخلف ، بضبط حقيقتها ، وجعل من اختلاف الحقيقتين ، سبباً لاختلاف المظهرين الاجتماعيين ، من حيث تتمثل الصورة الاجتماعية للأمة ، في ما يصدر عنها في كل عصر ، من مدارك الحضارة والثقافة ، على ما اختلف ذلك قريباً وبعداً ، من حقيقة الدين ، ومن حقيقة المظهر المثالي الكامل ، الذي ينبغي أن يبرز فيه المجتمع ، الذي يتكون بهذا الدين .
فجعل شؤون السياسة ، والعمران ، والصناعة ، والعلوم ، في الدولة الإسلامية ، تبعاً لشأن الدين . وجعل الحقيقة الأولى للدين ، التي هي العقيدة الفريدة ، أصلاً وأساساً لذلك كله ، فلنجد يدرس مشكلة فساد الدولة ، ويؤكد ربح العمران ، في عصور الإسلام اللاحقة ، عن عصوره السابقة ، وانتقاص الصنائع ، وتلاشي ملكات العلوم ، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده ، جامعاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين ، التي هي أساس العمران الناشئ به ، والدولة القائمة عليه ، أعني العقيدة الدينية .
فرد ذلك كله إلى صورة تكون الفرد ، تكوناً إيمانياً ، يرتبط من جهة ، بالدين الإسلامي في عقيدته ، ويسري منه إلى كل ما انتبثق من تلك العقيدة ، من مظاهر عمرانية ، وصناعية ، وفكرية .

جيريل، عليه السلام ، الذي بين فيه الرسول ﷺ مقام الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) . وفي المسند : « صلي صلاة مودع كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وحتى في العادات والمعاملات كلها ، فإن الإحسان ، مأمور به المسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليجد أحدكم مشفرته ، وليرح ذبيحته » (٢) .

(ز) صحوحة الأمة ، واستشعارها ، ودعوتها إلى ضرورة التوجه الكلي نحو الدين ، والالتزام به ، والحصول على القوة ، التي تحفظ كيان الأمة ، والعمل على استقلالية الأمة ، في كافة مجالات الحياة ، مما يعني بدء زوال ظاهرة القابلية للاستخواب (للاستعمار) ، التي بقيت ردحاً من الزمان عند المسلمين .

(ح) أن الأمة بتوحيدها ، بإيمانها ، وجهادها بامتلاك القوة ، والتقدم العلمي ، تبلغ أوج الحضارة ، وتنتصر على قوى التخلف في داخلها ، وتواجه قوى الطغيان والاستكبار العالمي ، لتنتصر عليها إن شاء الله .

الخلاصة :

إن التحديات الحضارية ، هي الخطر الحقيقي ، الذي يواجهنا نحن المسلمين اليوم ، غير أن هذا الخطر كائناً ما بلغ ، قد ردنا إلى الإيمان ، وأحيا فينا آمال العودة ، حتى ولو كان بعضنا أمياً ، فيؤتيه الله علماً . . والإيمان بالله ، هو أصل العلم .

ومهما كان ضعفنا ، وتفرقنا ، اليوم ، فإن الله يعيننا ، ويؤلف بيننا ، إذا استمسكنا بعروته الوثقى ، وعدنا إلى الإيمان العاصم ، فتملك بهذا العلم الإيماني ، إمكانية أن نهدي العالمين إلى الصراط المستقيم . ثم إننا من أجل إقامة نهضة حضارية ، وتفوق ثقافي ، وتقدم علمي ، لنكون قوة المستقبل التي تحمي الحق ، وتدافع عنه ، لا بد من عمل دائب ، وجهاد في هذا السبيل ، وإقامة للدين ، بمعانيه الشاملة والكاملة ، من أنه اعتقاد ، وعمل ، وعبادة ، وأخلاق ، وآداب ، وسلوك ، ومعاملات ، وقوانين مدنية ، وجنائية . . أو شعائر وشرائع ، واسلمة لشؤون الحياة كلها ، في الفرد ، والمجتمع ، والدولة .

(١) رواه البخاري . عن أبي هريرة . دون ذكر جيريل عليه السلام . انظر فتح الباري . ج ١٠ . ١١٤/١ . ومسلم . ج ٨٠ . ١٣٦/١ . عن عمر بن الخطاب . وفيه قصة جيريل عليه السلام .

(٢) رواه مسلم . ٥٤٨ / ٣ . كتاب المعيد والذبايح . باب الأمر بإحسان الذبيح . ج ٥٧ .

دور الذكر والجهاد.. في صناعة المستقبل

هذه دراسة في جهاد أهل الذكر ، وبيان حالهم ، في ساحات الجهاد ، في سبيل الله ، نشرح فيها معاني كلمة الذكر ، في لغة القرآن الكريم ، وصفات أهل الذكر ، ومراتب الجهاد في سبيل الله ، ومقام الجهاد في الدين ، مع تقديم نماذج من جهاد أهل الذكر ، من لدن عهد النبوة ، والصحابة والتابعين لهم ، لتكون انموذجاً للاقتداء ، حيث يقوم اليوم ، طوائف من أهل الذكر ، بأمر الدين ، والجهاد في سبيل الله ، يدورون مع الكتاب ، حيث دار ، ويهتدون بهدي السنة النبوية ، ويجددون أمر هذا الدين ، يحيون شعائره ، وقيمونه شرائعه ، ويجمعون بين القرآن والسلطان ، ويؤاخون بين السيف والقلم ، وهم أهل البشري ، بشرنا الصادق المصدوق عليه السلام قال : « لا يزال أهل الغرب ، ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة » (١) ، وهم أهل الحدة ، والشوكة ، والسلاح ، أي الجهاد في سبيل الله ، وهم أيضاً ، امتداد المهاجرين والأنصار ، ممن ساحوا في الأقطار ، يرفعون لواء التوحيد ، وذلك إلى كونهم أظهر جهة في اتجاه الغرب ، وأقربها من جهة القبلة .

وهذه هي المعاني الجامعة لكلمة الغرب ، كما جاءت في هذا الحديث (٢) ، وأنها الطائفة المنصورة ، إن شاء الله تعالى ، تحقيقاً لوعده ربنا : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ لَكُمْ نَا إِلَهُ الْإِبْرَاهِيمَ ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿ ١٧٢ ﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ ١٧٣ ﴾ (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

(١) رواه مسلم ، ك الإمامة ، باب : لا تزال طائفة .

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث ، والأثر لابن الأثير . ٢٥١/٣ . ط عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، وشرح النووي على صحيح مسلم ، ٦٦/١٣ ، منشورات مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، وفتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ٢٩٣/١٢ ، منشورات مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت .

معاني الذكر في لغة القرآن الكريم

- قد جاءت معاني الذكر في القرآن الكريم ، على أوجه كثيرة ، يجمع بينها أنها تعد كلها من صفات أهل الذكر ، منها ما يعد صفة ملازمة لأهل الذكر ، الذاكرين الله كثيراً :
- (أ) فالذكر : بمعنى الوحي ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (القمر : ٢٥) ، يعني الوحي .
- (ب) والذكر : بمعنى القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (الأنبياء : ٥٠) ، يعني القرآن .
- (جـ) والذكر : بمعنى الحفظ ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٦٣) ، يعني احفظوا ما فيه .
- (د) والذكر : بمعنى طاعة الله ، التي لا يكون بدونها أحدٌ ذاكراً ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَذْكُرُوا أَنِ ادْكُرْتُمْ ﴾ (البقرة : ١٥٢) .
- (هـ) والذكر : أيضاً الشيء يجري على اللسان ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ (النساء : ١٠٣) ، وقوله ﷺ : « ما يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (١) .
- (و) والذكر بالقلب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ ﴾ (آل عمران : ١٣٥) ، أي ذكره في أنفسهم ، وعلموا أنه سائلهم عما عملوا .
- (ز) والذكر : بمعنى التفكير ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٤) .
- (حـ) والذكر ، والذكرى : بمعنى التذكير : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

(١) الترمذي ، له الدعوات ، ٤ ، مستند أحمد ، ١٨٨/٤ ، ١٩٠ .

(ط) والذكر، والذكرى : نقيض النسيان : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمَةٍ﴾ (يوسف : ٤٥) ،
أي تذكر بعد نسيان .

(ي) والذكر : بمعنى الصلوات الخمس ، وذلك في قوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ
تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور : ٣٧) ، يعني الصلوات الخمس .
(ك) والذكر : بمعنى الدراسة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾
(الاعراف : ١٧١) ، معناه : وادرسوا ما فيه .

(ل) والذكر : الصيت ، والثناء ، والشرف ﴿صَّ وَالْفُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص : ١) .
(م) والذكر : بمعنى الخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ
ذِكْرًا﴾ (الكهف : ٨٣) ، يعني خبراً .

(ن) والذكر : بمعنى البيان ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ ذِكْرٌ
مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الاعراف : ٦٣ و ٦٩) ، أي بيان من ربكم .

(س) والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر : ٩) .

(ع) الذكر : الصلاة ، والتسبيح ، والدعاء ، والشكر ، وتمجيد الله تعالى ، وتهليله ،
والثناء على الله ، بجميع محامده (١) .

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نكر) .
الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة (نكر) . ج ١١ ، تحقيق عبدالكريم الفريايوي ، ط الكويت ،
١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن ، ط بغداد ، ١٤٠٩هـ -
١٩٨٨م .
يحيى بن سلام : التصاريف : تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ، تحقيق هند شلبي ، ط
تونس ، ١٩٨٠ .
الدامغاني أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد : إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، تحقيق عبدالعزيز
سيد الأمل ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .

(ص) وقد أحسن صنعاً ، الحكيم الترمذي ، حين ذكر في كتابه : (تحصيل نظائر القرآن) ، أن من معاني الذكر : الجهاد . قال : «وإنما صار الذكر (الجهاد) في مكان آخر ، لأنه إنما يجاهد عن لا إله إلا الله ، ولإقامتها ، وللذب عنها ، فذلك الفعل هو ذكره» (١) .

ويلزم أهل الذكر ، ليكونوا من أهل الثناء ، والشرف ، والرفعة حقيقة ، أن يكونوا أهل فكر ، وعظة ، واعتبار ، وعمل صالح ، كالصلاة ، والجهاد ، وذكر الله بالقلب ، واللسان ، وذكر الله بتلاوة القرآن ، وحفظه ، وتدبره ، ومعرفة بيانه ، وأخباره ، وذكر الله بالدعاء ، والتسبيح ، والشكر ، والثناء على الله تعالى .

هذا ، وذكر الله واسع سعة معاني الدين ، وشموله لشؤون الحياة كلها ، كما نجد في الهدي النبوي ، الأنموذج ، والقدوة الحسنة . وقد كانت حياته ﷺ ، كلها ذكراً ، إذ كان يذكر الله في جميع أحيانه .

وهكذا كان فقه الصحابة .. وهذه واحدة من الصحابييات الجليلات ، كمنال على هذا الفقه : فعن أم الدرداء أنها قالت في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت : ٤٥) :

- فإن صليت ، فهو من ذكر الله .
- وإن صمت ، فهو من ذكر الله .
- وكل خير تعمله ، فهو من ذكر الله .
- وكل شر تجتنبه ، فهو من ذكر الله .
- وأفضل الذكر ، تسبيح الله (٢) .

(١) الحكيم الترمذي : تحصيل نظائر القرآن ، تحقيق حسني نصر زيدان ، ط ١ ، مطبعة القاهرة ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ، ص ٦٤ .

(٢) انظر الطبري في تفسيره ، ١٥٧/٢٠ .

صفات أهل الذكر

أهل الذكر هم المسبحون ، الحامدون ، التالون ، المصلون ، المقيمون لشعائر الله ، وشرائعه ، وهم المحبون لله تعالى ، والمحبون لرسول الله ﷺ ، والذين يحبون إخوانهم في الدين ، وهم المستجيبون لأمر ربهم ، بالإكثار من ذكره تعالى .

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذَكَرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ ﴾ (الأحزاب : ٤١ - ٤٢) ، وقد جاءت هذه الآية ، في سياق إثبات ختم النبوة والرسالة ، لحاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) .. وفي الذكر ، إشارة واضحة ، إلى أن الذكر صفة ملازمة لنبينا ﷺ ، وأنه جاء بالذكر ذاكراً ، ومذكراً .

وفيها من لطائف الإشارات ، أنها جاءت على رأس الأربعين آية من سورة الأحزاب ، المرافقة لسن النبوة ، عند نزول الوحي .

وقال تعالى : ﴿ وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥ ﴾ (الأحزاب : ٣٥) .

وهذه الآية جاءت في سياق الأمر بذكر الله ، وتلاوة كتابه ، وإحسان الفقه في القرآن ، علماً ، وعملاً ، مع إخلاص الإسلام ، والإيمان ، وصدق للدين ، والصبر ، والخشوع ، والإنفاق ، والتصدق ، والصيام ، والعفاف ، قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْتِ مَآبِئَكَ فِي يَوْمِئِذٍ مَنْ آيَتِ اللَّهُ وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِرِينَ وَالصَّادِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ (الأحزاب : ٣٤-٣٥) ، وقال تعالى : ﴿ أَتَى
مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ﴿١٥﴾

(العنكبوت : ٤٥) ، أي ذكر الله لكم بالثواب ، والثناء عليكم ، أكبر من ذكركم له في
عبادتكم ، وصلواتكم .. قال معناه ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ، وأبو قرة ،
وسلمان ، والحسن ، وهو اختيار الطبري (١) .. وثواب ذكر الله ، هو أن يذكره الله تعالى ،
كما في الحديث القدسي : « من ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ
ذكرته في ملأ خير منهم » (٢) .

والذكر النافع ، هو ما كان مع العلم ، وإقبال القلب ، وتفرغه إلا من الله ، وأهل
الذكر ، قد باعوا الله أنفسهم ، وزكوا أنفاسهم في سبيل مرضاته ، فما يقعدهم عن
الجهاد شيء .. كيف لا وهم المتحققون بالتوبة ، والمعبادة الخالصة لله ، وهي العبادة
الجامعة لأركان الإسلام ، وسهامه ، وشعائره ، وشرائعه ، بالتوحيد الخالص ، والصلاة
الحاشعة ، والإحسان في إيتاء الزكاة ، وصيام رمضان والحج ، والجهاد في سبيل الله ، والأمر
بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والمحافظة على حدود الله تعالى ، والدعوة إليه جل جلاله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيَقْتُلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقَّ التَّوْبَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمْ
الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿١١﴾ السَّاجِدُونَ الْعَسِيدُونَ
الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكْعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ لَا يَمُرُّونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالْكَافِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

(التوبة : ١١١-١١٢) ، وقد ورد وصف المؤمنين من أهل الذكر ، في

(١) انظر الطبري في تفسيره ، ١٥٧/٢٠ .

(٢) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب : ١٥ ، مسلم ، كتاب الذكر ، ٢٠ ، ١٨٠ .

سياق الجهاد ، في صدر سورة الأنفال التي تسمى ايضاً سورة الجهاد ، وسورة بدر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال : ١ - ٤) . وذلك ليظهروا نفوسهم، عن الاشتغال بالاختلاف حول المغنم ، ولتتعلق همهم بالفردوس الأعلى، ولتحققوا بالإيمان الكامل .

الجهاد وصدق الإيمان :

ثم إنه لا يكون صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، والاستقامة على دين الله ، وأمره ، إلا بالجهاد في سبيله تعالى ، بالمال ، والنفس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات : ١٥) .

جهاد النفس :

ولا يكون جهادنا في ساحات القتال ، إلا ونحن نجاهد أنفسنا جهاداً عظيماً ، حتى نتخلى عن رغائب الدنيا ، وجواذيبها الأرضية ، ومن لم يجاهد نفسه ، لم ينتصر عليها ، فيخرج مقاتلاً للعدو الخارجي : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢١٦) ، وبجهاد النفس ، يصير ما تكرهه حبيباً إليها ، حتى القتال ، ومبارزة العدو ، وتعرض النفس للخطر ، وحينئذ فالجاهدون لا يفرغون من غزوة ، إلا واعدوا أنفسهم لما بعدها ، ولولا هذه الروح الدافعة ، والسر العظيم في الجهاد،

ما بلغوا في وجيز من الزمان مشارق الأرض ومغاربها . وفي بيان المقام العظيم لجهاد النفس ، يقول ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل » (١) .

الجهاد : المعنى .. والمراتب

معنى الجهاد :

وتفسير الجهاد ، في لغة القرآن الكريم ، على ثلاثة وجوه :

١ - الجهاد بالقول ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

٢ - القتال بالسلاح كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِيَ الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (النساء : ٩٥) .

٣ - الجهاد يعني العمل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يَجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ (التكوير : ٦) ، يعني : ومن عمل الخير ، فإنما يعمل لنفسه ، وله نفع ذلك (٢) .
والجهاد في سبيل الله باب واسع ، فمنه جهاد النفس ، وجهاد العلم ، والحجة ، واللسان ، وجهاد المال ، والبذل ، والإنفاق ، وجهاد العدو بالقتال والمبارزة .
وقد حقق بعض العارفين القول في الجهاد ، ومراتبه ، على نحو ما يرد موجزاً ، فيما يلي :

مراتب الجهاد :

الجهاد على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : جهاد النفس ، وهو أيضاً أربع مراتب :
أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى .

(١) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، ٢ ، مسند أحمد ٢٠/٦ - ٢٢ .

(٢) انظر هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ص : ٣١٩ .

ما بلغوا في وجيز من الزمان مشارق الأرض ومغاربها . وفي بيان المقام العظيم لجهاد النفس ، يقول ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل » (١) .

الجهاد : المعنى .. والمراتب

معنى الجهاد :

وتفسير الجهاد ، في لغة القرآن الكريم ، على ثلاثة وجوه :

١ - الجهاد بالقول ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

٢ - القتال بالسلاح كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِيَ الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (النساء : ٩٥) .

٣ - الجهاد يعني العمل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ (التكوت : ٦) ، يعني : ومن عمل الخير ، فإنما يعمل لنفسه ، وله نفع ذلك (٢) . والجهاد في سبيل الله باب واسع ، فمنه جهاد النفس ، وجهاد العلم ، والحجة ، واللسان ، وجهاد المال ، والبذل ، والإنفاق ، وجهاد العدو بالقتال والمبارزة . وقد حقق بعض العارفين القول في الجهاد ، ومراتبه ، على نحو ما يرد موجزاً ، فيما يلي :

مراتب الجهاد :

الجهاد على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : جهاد النفس ، وهو أيضاً أربع مراتب : أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى .

(١) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، ٢ ، مسند أحمد ٢٠/٦ - ٢٢ .

(٢) انظر هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ص : ٣١٩ .

الثانية : على العمل به بعد علمه .

الثالثة : على الدعوة إليه ، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله .

الرابعة : على الصبر على مشاق الدعوة ، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه الأربع ، صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يكون ربانياً ، حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويعلمه .

المرتبة الثانية : جهاد الشيطان ، وهو مرتبتان : إحداهما ؛ جهاده على دفع ما يلقي من الشبهات ، والثانية جهاده على دفع ما يلقي من الشهوات .

فالأولى بعدة اليقين ، والثانية بعدة الصبر ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة : ٢٤) .

المرتبة الثالثة : جهاد الكفار والمنافقين ، وهو أربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال والنفس . . وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

المرتبة الرابعة : جهاد أرباب الظلم ، والمنكرات ، والبدع ، وهو ثلاث مراتب : باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان ، فإن عجز جاهد بقلبه (١) .

وقد كانت حياة السلف الصالح ، قائمة على ذكر الله آناء الليل ، وأطراف النهار ، تلاوة للقرآن ، مع التزام ورد فيه معلوم ، بحسب مقام كل واحد منهم ، مع التزام الجماعة ، جماعة المسلمين ، وجماعة الصلاة ، وقيام الليل ، وصيام التطوع ، والسعي في مصالح المسلمين ، وإيصال النفع ، والخير لهم ، مع الاستقامة على أمر الله ، والقيام بواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في رفق ، وأناة ، وحلم ، حتى رضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس ؛ يوالي بعضهم بعضاً ، ويذكرون الله بلسان حالهم ، ومقالهم ، على نحو ما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : (اجلس بنا تؤمن ساعة) (٢) .

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٩/٢ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٦ .

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان ، ١٠ .

وما أثر عن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يقول ، وهو يأخذ بيد الرجل والرجلين ، من أصحابه : (قم بنا نزد إيماناً) ، فيذكرون الله تعالى بعض الوقت . (١)

لقد كانوا حقاً رهباناً في الليل ، فرساناً في النهار ، وربما تفرحت بطون بعضهم ، من التزام أكل قدر محدود من التمر كل يوم ، كأهل الصفة الذين رحم حالهم حبيبهم رسول الله ﷺ ، الموصوف بالرفقة ، والرحمة ، حتى إنه لم يجد شيئاً يطعمهم غير شعير ولين ، مع تطيب خاطرهم ، بأنه لا يجد في بيته غير هذا . (٢)

وقد يسقط بعضهم من الإعياء ، في طريقه إلى صلاة الجماعة ، على قرب المكان ، أو يربط على بطنه الحجر من الجوع ، لكنه إذا نودي للجهد ، كان أسرع إجابة للنداء ، ولربما قال بلسان حاله ، أو مقاله : ما أحسن الآن لو سمعت منادياً ينادي : يا خيل الله اركبي (٣) .

إن همهم الفردوس الأعلى .

وهذان مثلاً لرجلين ، من هؤلاء الرجال ، فأحدهما وهو يصب ماء الوضوء للنبي لله ، فيطلبه أن يسأل ما يتمنى ، فلا يكون جوابه إلا : (أسألك مرافقتك في الجنة) ، قال له عليه الصلاة والسلام : « أو غير ذلك ؟ فأكند ما طلبه أولاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : وفأعني على نفسك بكثرة السجود » (٤) .

(١) كنز العمال ، ٢٤٠/٢ ، ح ٣٩٢١ ، وعزاه إلى النسائي في الكبرى ، واللائكاني في السنة .

(٢) صحيح البخاري ، الفتح ، ٢٨١/١١ ، ح ٦٤٥٢ ، وانظر مسند أحمد ، ١٩٨/٤ .

(٣) الحديث أخرجه أبو الشيخ ، في التماسخ والمنسوخ ، والعسكري عن أنس قال : (فنادى منادي رسول الله : يا خيل الله اركبي) ، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرک من قصة أويس ، وعنون أبو داود : (باب النداء عند التغير يا خيل الله اركبي) ، ولكنه لم يذكر في الحديث الذي ساقه ، هذا اللفظ ، الذي أورده المصنف .

انظر كتاب صفوة الصفوة ، لابن الجوزي ، ٢٠٨/١ ، أورده ضمن المختارات التي صنفها تحت عنوان : (ومن كلامه المتقن وأمثاله العجيبة صلى الله عليه وسلم) .

صفوة الصفوة تحقيق محمود فاخوري ، خرج أحاديثه د . محمد رواس قلعجي ، دار المعرفة ، ط ٤ .

(٤) أحمد ، ٥٩/٤ .

والمثل الثاني لعمير بن الحمام ، وقد بلغ به الشوق مداه لدار الخلد ، لما سمع النبي ﷺ يحض على القتال ، ويبشر الشهداء ، فما كان منه إلا أن سارع إلى مبتغاه ، وهو يلقي بثمرات كن معه قائلاً : (لئن أنا عشت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة) (١) .

النبي ﷺ أسوة المؤمنين في جميع أبواب البر :

وإن الناسي برسول الله ﷺ ، طريق نجاتنا ، ودليل محبتنا له ، وذلك على سعة أبواب الخير التي نتأسى فيها بالنبي ﷺ ، على قدر طاقتنا ، وهو سيد الذاكرين ، والشاكرين ، والحمددين ، والمصلين ، والصائمين ، والمنفقين ، وهو سيد قراء القرآن ، وهو قائد الغر المحجلين ، وهو إمامنا في كل خير (٢) .

الجهاد ذروة سنام الإسلام :

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، وهو من أركان الدين .. والنبي ﷺ ، أسوة المؤمنين ، هو المعظم شأن الجهاد ، الواصف له بأنه ذروة سنام الإسلام (٣) .
والجهاد ملحق بأركان الإسلام الخمسة ، وقد عد النبي ﷺ أسهم الإسلام الثمانية : الخمسة المعروفة ، وأضاف إليها ثلاثة ، هي : الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (٤) .

النبي ﷺ أسوة الذاكرين والمجاهدين :

وقد جاء ذكر الأسوة في القرآن ، في ثلاثة مواضع ، في سورتي الأحزاب ، والممتحنة ، المدينيتين ، كلها في سياق الولاء ، والبراء في الله تعالى ، والجهاد في سبيله .. ففي موضعي

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٨٧/٣ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، عدة الصابرين .

(٣) الترمذي ، كتاب الإيمان ، ٨ ، ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ١٢ ، أحمد ٢٣١/٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ .

(٤) انظر ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، طبعة دار الفكر ، ص ٢٥ ، والحديث إسناده صحيح ، عن

حنيفة موقوفاً ، وأما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فضعيف .

سورة الممتحنة ، دعاء إلى الناسي بابي الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا ، وعلى جميع المرسلين الصلاة والسلام ، وموضوع الأسوة هنا ، في الولاء في الله تعالى ، لأوليائه ، والبراءة من المشركين ، ومقاطعة الذين يصدون عن سبيل الله ، ويغونها عوجاً .

فَالْتَعَالَى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ
إِنَابِرَةٌ وَإِنا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ
وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَّمَكْ نَوْكَانَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۝

(المتحة : ٤ - ٦) .

أما آية سورة الأحزاب ، فقد جاءت في سياق الجهاد ، تدعو للتأسي بسيد الذاكرين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ۝﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَّدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا
تَبَدُّلًا ۝﴾ (الأحزاب : ٢١ - ٢٣) .

يقول ابن كثير في تفسيره : هذه الآية ، أصل كبير في التماسي برسول الله ﷺ ، في أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ، ومصابرته ، ومرابطته ، ومجاهداته ، ولهذا قال تعالى للذين تضجروا ، وتزلزلوا ، واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، أي : هلا

اقتديتم به ، وتأسيتم بشمائله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١) .

وهذه الآية الأخيرة ، قرأها رسول الله ﷺ ، يوم أحد ، بين يدي جثمان المعلم الأول ، ومقرئ القرآن بالمدينة ، الصحابي الشهيد مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، ثم قال : « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن هذه الآيات ، نزلت في عمه أنس بين النضر رضي الله عنه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ الآية (٢) .

ومن الصحابة ، من أسعده الله ، وشرفه بالشهادة النبوية ، أنه ممن ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .. فعن طلحة رضي الله عنه ، قال : لما رجع رسول الله ﷺ ، من أحد ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر ، والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ ، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران حَضْرِيَان فقال : « أيها السائل هذا منهم » (٣) .

المجاهدون وملازمة الذكر :

وذكر الله ، يلزم المجاهدين في سبيل الله ، وهم يستغيثون الله ، ويدعونه ، ويتضرعون إليه ، في ساحات القتال ، ويفتقرون إليه تعالى ، ويخضعون له ، ومع إعدادهم العدة اللازمة ، فهم لا يعتمدون عليها ، بل يفوضون أمرهم إلى الله ، ويتوكلون عليه ، أو كما وصف صاحب البردة صحابة رسول الله ﷺ :

كانهم في ظهور الخيل نبت ربي *** من شدة الحزم لا من شدة الحزم

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤٧٤/٣ .

(٢) أخرجه البخاري ، عن أنس ، وهكذا رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأحمد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن موسى بن طلحة .. انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (٤٧١/٣) .

ولكنهم معتمدون على عناية الله :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة *** من الدروع وعن عال من الأطم
ودعوة هذا شأنها ، وهؤلاء جنودها ، فإنها منصوره بإذن الله ، مهما كان أعداؤها :
ما حوربت قط إلا عاد من حرب *** أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

وقد اقتدى بالنبي ﷺ ، رجال من الصحابة الكرام ، وتبعهم بإحسان رجال ممن جاء
بعدهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

لقد كان ذكر الله حالة غالبية عليهم ، وجهاد النفس سمة تميزهم ، وساحات الجهاد ،
سياحة لهم . والمؤمنون مأمورون بالإكثار من ذكر الله تعالى .

ثم إنه لو كان الله تعالى ، مرخصاً لأحد في ترك الذكر ، لكان ذلك مع زكريا عليه
السلام حين سأل أن يجعل له آية : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَاتُكُمُ
النَّاسُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ الْآرْمَرُ ۖ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾
(آل عمران : ٤١) ، وكان ذلك أيضاً مع المجاهدين ، وهم يقاتلون في ساحات الجهاد ،
فقد أمروا بذكر الله كثيراً : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُيَسِرْتُمْ فَاَنْجَبُوا
وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال : ٤٥) .

أهل الذكر وساحات الجهاد :

وأهل الذكر ، قلوبهم متعلقة بساحات الجهاد ، لأنها مظنة استجابة الدعاء ، ومدد
الملائكة في الغزوات : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال : ٩) .. وقد بشرنا النبي ﷺ ، أن الدعاء
يستجاب في ميدان القتال ، حيث قال ﷺ : «ثنتان لا تردان - الدعاء عند النداء ، وعند

البأس ، حين يلجم بعضهم بعضاً»^(١) ، كما روى الشافعي في كتابه (الام) ، بسند مرسل، عن النبي ﷺ قال : «اطلبوا استجابة الدعاء ، عند التقاء الجيوش ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث»^(٢) .

وأهل الذكر، هم المرابطون على ثغور الإسلام : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .
وعيون الحاشعين ، الذاكرين الله كثيراً ، مثل عيون المرابطين ، يحرسون ثغور الإسلام ، كتب الله لها النجاة : «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(٣) .

الجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام :

وأهل الذكر ، مجاهدون ، دعاة إلى الله .. والجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام ، وهو ذروة سنامه ، وأقصر طريق إلى رضوان الله ، وأقربيه ، فالجنة تحت ظلال السيوف ، ثم إنه لا سبيل لإعلاء كلمة الله تعالى ، بدون الجهاد ، وإنه لحقاً أعظم العبادات ، حتى إن المالكية يذكرون باب الجهاد ، متصلاً بالعبادات ، اعتباراً بنية الجهاد : «لتكون كلمة الله هي العليا»^(٤) .

نماذج من مجاهدي الصحابة

لقد كان الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، على مراتبهم في الأولوية ، والسبق ، والفضل ، يتصدر التعريف بكل واحد منهم ، بعد ذكر إسلامه ، أنه شهد المشاهد ، والغزوات كلها ، مع رسول الله ﷺ ، أو يذكر في ترجمته مقدار ما شهد من هذه المشاهد ،

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب الدعاء عند اللقاء .

(٢) المجموع ، شرح المذهب ، ٩٦/٥ .

(٣) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ١٢ .

(٤) انظر رسالة (المرشد إلى الجهاد) ، أحمد علي الإمام ، ص ٧ .

البأس ، حين يلجم بعضهم بعضاً»^(١) ، كما روى الشافعي في كتابه (الأم) ، بسند مرسل، عن النبي ﷺ قال : «اطلبوا استجابة الدعاء ، عند التقاء الجيوش ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث»^(٢) .

وأهل الذكر، هم المرابطون على ثغور الإسلام : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .
وعيون الحاشعين ، الذاكرين الله كثيراً ، مثل عيون المرابطين ، يحرسون ثغور الإسلام ، كتب الله لها النجاة : «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(٣) .

الجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام :

وأهل الذكر ، مجاهدون ، دعاة إلى الله .. والجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام ، وهو ذروة سنامه ، وأقصر طريق إلى رضوان الله ، وأقربيه ، فالجنة تحت ظلال السيوف ، ثم إنه لا سبيل لإعلاء كلمة الله تعالى ، بدون الجهاد ، وإنه لحقاً أعظم العبادات ، حتى إن المالكية يذكرون باب الجهاد ، متصلاً بالعبادات ، اعتباراً بنية الجهاد : «لتكون كلمة الله هي العليا»^(٤) .

نماذج من مجاهدي الصحابة

لقد كان الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، على مراتبهم في الأولوية ، والسبق ، والفضل ، يتصدر التعريف بكل واحد منهم ، بعد ذكر إسلامه ، أنه شهد المشاهد ، والغزوات كلها ، مع رسول الله ﷺ ، أو يذكر في ترجمته مقدار ما شهد من هذه المشاهد ،

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب الدعاء عند اللقاء .

(٢) المجموع ، شرح المذهب ، ٩٦/٥ .

(٣) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ١٢ .

(٤) انظر رسالة (المرشد إلى الجهاد) ، أحمد علي الإمام ، ص ٧ .

وشارك في تلك الغزوات ، مع ذكر جمعه للقرآن ، أو ما حفظه منه ، وذكر عبادته ، وتهجده ، وإنفاقه ، وبذله .. وهكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين ، إلى تمام العشرة المبشرة ، وقد زادوا فوق ذلك ، تحمل أعباء الخلافة ، والإمرة ، والقيادة (١) .

وحيثما نظرت في تراجم هؤلاء الرجال ، وجدتهم في المشهورين بالعلم ، والزهدي ، والتعب ، والجهد ، ومن بينهم عدد وافر من الصحابييات العابدات ، اللاتي اشتركن في جملة من الغزوات ، بما تيسر من مشاركة مناسبة ، كالسقي ، والتمريض ، والنقل ، والأعمال الإدارية ، مع المشاركة الفعلية في القتال أحياناً (٢) ، وقد شاركت جملة من أمهات المؤمنين في بعض هذه الغزوات ، بصحبة النبي ﷺ ، وفقاً لقسمهن ، وسهمهن ، في الخروج (٣) .

وهذه نماذج يسيرة ، من هدي خير القرون ، من جيل الصحابة ، السابقين بالإحسان ، من المعروفين بالقراء والعلماء ، الذين كانوا من أهل التقوى ، والمغفرة ، والجهد ، والبذل في سبيل الله ، والعبادة ، والتهجد ، والصوم ، وسلامة الصدر ، ولزوم الذكر :

١ - مصعب بن عمير .. المقرئ :

أول معلم يهاجر إلى المدينة ، داعية إلى الإسلام ، يمضي شهيداً يوم أحد ، وهو يتلو القرآن في الميدان :

لقد ظل مصعب بن عمير يعلم القرآن ، ويدعو الناس للإسلام ، واستشهد يوم أحد ، وهو يحمل الراية ، وجعل يقرأ القرآن في الميدان ، شبت به المؤمنين ، وكان آخر ما قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

(١) انظر على سبيل المثال ، في سيرة الخلفاء الراشدين ، وبقية العشرة المبشرة ، من كتاب الإمام ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ج ١ / ٢٤٢ - ٣٦٦ .

(٢) انظر ابن الجوزي في صفوة الصفوة ، ١٥/٢ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق .

عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

٢- سالم مولى أبي حذيفة .. يحمل اللواء يوم اليمامة ، على درب مصعب بن عمير ^(١) :

كما اعتنق سالم مولى أبي حذيفة ، اللواء يوم اليمامة ، وجعل يدعو الناس للاجتماع
والقتال : (يا أهل سورة البقرة ، يا أهل سورة آل عمران) ، وأنكر على من ظن به أن الراية
تسقط من يده فقال : (بمس حامل القرآن أنا إذا) . وقطعت يده ، والراية على صدره ، بين
يديه ، وهو يقرأ بين يدي استشهاده ، تماماً مثلما صنع مصعب بن عمير ، قرأ :
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. ﴾ (آل عمران : ١٤٤) ^(٢) .

٣ - معاذ بن جبل .. أنموذج فريد ، في حب الله ، ولقائه :

لقد حُبيب لقاء الله إلى الصحابة ، وهم سادة الذاكرين ، إنهم كانوا يذكرون الله تعالى
ذكراً كثيراً ، فزكت نفوسهم ، واشتاقوا للقاء الله ، إن كانوا في ميدان الجهاد ، فهم يرجون
الشهادة ، وإلا فحسن الختام ، وهم في سبيل ذلك يلبون النداء ، فيخرجون عن المدينة ،
التي يحبونها ، ويحتملون ألم فراق سيد الصحابة ، بل سيد الأنبياء والمرسلين ، وقائد الغر
المجاهدين عليه السلام .

وإنه يمثل لنا هذا الأنموذج ، معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقد كان معلماً ، داعية إلى
الخير ، مجاهداً . فعن عاصم بن حميد ، عن معاذ بن جبل قال ، لما بعثه رسول الله ﷺ ،
إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ بوصيه ، ومعاذ راكب ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ، ١٤٥/١ .

(٢) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٧/٦ .

راحلته ، فلما فرغ قال : « يا معاذ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك تمر بمسجدي هذا ، وقبري » ، فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت ، فاقبل بوجهه نحو المدينة ، فقال : « إن أولى الناس بي ، المتقون ، من كانوا ، وحيث كانوا » (١) .

وقد أعد معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، نفسه للقاء الله ، بل إن أهله كانوا مثله ، فإنه لما أصاب ولديه الطاعون قبله ، استبشر معهما بلقاء الله ، قال لهما : كيف تجدانكما ؟ قالوا : يا أبانا ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٧) ، قال : وأنا ستجداني إن شاء الله من الصابرين (٢) . ثم إن معاذ بن جبل استقبل الموت بحفاوة بالغة ، وذلك في طاعون عمواس ، بناحية الأردن ، سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وله من العمر حينئذ ثلاث وثلاثون سنة . ولما شعر بدنو الأجل ، هتف :

مرحباً بالموت مرحباً ، زائر مُغِب ، حبيب جاء على فاقة ، اللهم إني قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، إنك لتعلم أنني لم أكن أحب الدنيا ، وطول البقاء فيها ، لكري الانهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظما الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب ، عند خلق الذكر (٣) .

وقد خص الله تعالى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، بجمللة فضائل ، من السبق في الإسلام ، والبيعة ، والعلم ، والعمل ، والزهد ، والورع ، والكرم ، والجود ، والتعبد ، والاجتهاد . شهد بيعة العقبة ، وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وأردفه وراءه ، وبعثه إلى اليمن ، بعد غزوة تبوك ، وشيعه ماشياً في مخرجه ، وهو راكب .

(١) الحديث صحيح ، أخرجه الإمام أحمد ، في المسند ، ٢٣٥/٥ ، وقال ابن حجر : في الإصابة في تمييز الصحابة ، بعد أن ذكره في ترجمة معاذ : الحديث صحيح .

(٢) ابن الجوزي : صفة الصلوة ، ٥٠٠/٨ .

(٣) المصدر السابق ، ٥٠٢/١ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، ٤٤٣/١ .

وهو مع ذلك ، متواضع ، يقول إذا قام يتجهجد من الليل ، يناجي ربه : اللَّهُمَّ قد نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حي قيوم ، اللَّهُمَّ طلبني للجنة بطيء ، وهربي من النار ضعيف ، اللَّهُمَّ اجعل لي عندك هدى ، ترده إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد (١) .

٤ - أبو طلحة الأنصاري .. رجل كالف :

أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري ، شهد العقبة مع السبعين ، وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان من الرماة المذكورين ، بقي بصدره رسول الله ﷺ ، وكان قوي التأثير على العدو ، حتى قال ﷺ : « لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة » (٢) ، وفي رواية أخرى : « لصوت أبي طلحة أشد على المشركين من فئة » .

وكان من أكثر الأنصار مالاً ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ لَنْ نَأْذِيَكَ أَلَّيْكَ حَتَّى تُفَقِّهُوا مِمَّا حُجِّبُوا ﴾ (آل عمران : ٩٢) ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، وأوقف أمواله إليه ، وجعلها صدقة في سبيل الله على الأقربين ، وبني عمه (٣) وعن أنس ، أن أبا طلحة ، ما أفطر بعد رسول الله ﷺ ، إلا في مرض ، أو سفر ، حتى لقي الله . وعنه : أن أبا طلحة ، غزا البحر ، فمات ، فلم يوجد له جزيرة يدفن فيها ، سبعة أيام ، فلم يتغير (٤) .

ه - عبد الله بن رواحة .. الفدائي المقدم والصوام :

عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس ، يكنى أبا محمد ، أحد النقباء الاثني عشر ، وشهد العقبة مع السبعين ، وبدراً ، وأحداً ، والحنديق ، والحديبية ، وخيبر ، وعُمرة

(١) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ١ / ٤٨٩ ، ٤٥٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، انظر : ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، ج ٣ / ٣٦١ .

(٣) الحديث في صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، الباب ٤٦ : الزكاة على الأقارب ، وسلم في صحيحه ، في كتاب الزكاة ، باب : فضل النفقة على الأقربين .

(٤) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ١ / ٤٧٧ - ٤٨٠ .

القضاء . واستخلفه رسول الله ﷺ ، على المدينة في غزوة بدر الموعد (بدر الآخرة) ، وبعثه في سرية في ثلاثين مجاهداً ، إلى أسير بن رزام اليهودي ، بخيبر ، فقتله ، وأرسله إلى خيبر خارصاً .

وعن أبي الدرداء قال : لقد رأيتنا مع النبي ﷺ ، في بعض أسفاره ، في اليوم الحار ، الشديد الحر ، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما في القوم صائم ، إلا رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن رواحة (١) .

٦ - أبو دجانة .. يبايع على الموت :

أبو دجانة سماك بن خرشة ، شهيد بداراً ، واحداً ، وثبت مع رسول الله ﷺ ، يومئذ ، وبايعه على الموت ، وقتل بعد اليمامة شهيداً .

كان سليم الصدر ، يحفظ وقته ولسانه ، فلا يتكلم فيما لا يعنيه ، فعن زيد بن أسلم ، قال : دخل على أبي دجانة وهو مريض ، وكان وجهه يتهلل ، فقيل : ما لوجهك يتهلل ؟ فقال : ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين ، أما أحدهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني ، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً (٢) .

٧ - حُبَيْب بن عدي .. أول شهيد سنَّ صلاة ركعتين بين يدي القتل:

وهذا حبيب بن عدي بن مالك ، شهد أحداً مع النبي ﷺ ، وكان فيمن بعثه مع بني لحيان ، فأسروه هو وزيد بن الدثنة ، فباعوهما من قريش ، فقتلوهما ، وصلبوهما بمكة ، بالتنعيم . ولما خرجوا به من الحرم ، ليقتلوه في الحل ، قال لهم حبيب : دعوني أصلي

(١) البخاري ، كتاب الصوم ، ٣٥ ، مسلم ، كتاب الصيام ، حديث ١٠٨ ، ١٠٩ ، وانظر صفوة الصفوة ، ١/٤٨١ .

(٢) ابن الجوزي ، في صفوة الصفوة ، ج ١/٤٨٥ - ٤٨٦ .

ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين ، وقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع ، لزدت :
(اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تبق منهم أحداً) .

وقال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً *** على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** ييسارك على أوصال شلور ممزع
وكان خبيب ، هو الذي سن هذه الصلاة لكل مسلم ، ويستبشر بقاء الله عز وجل ،
فيصلي بين يدي تقديمه للقتل ، رحمه الله ، وأحسن لقاءه (١) .

نماذج من مجاهدي التابعين لهم بإحسان

١ - صله بن أشيم العدوي .. شهيد من أهل الذكر والذاكرين :

وهذا نموذج لرجل من التابعين ، هو صله بن أشيم العدوي ، من كبار التابعين ، من
أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع ، وعبادة ، وزهد ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي
الفراش إلا حبواً ، وله مناقب كثيرة جداً . وكان يكثر من صلاة الليل في الغزوات ، التي
يشارك فيها ، مقاتلاً مع الجيش ، وقال رجل لصله : ادع الله لي .. فقال : (رغبك الله فيما
يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين ، الذي لا يرجى إلا إليه ، ولا يعول في
الدين إلا عليه) .

وكان صله في غزاة ، ومعه ابنه ، فقال : أي بني ، تقدم فقاتل ، حتى احتسبك ..
فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم قاتل صله ، حتى قُتل .

(١) صفوة الصفوة ، ١/٦١٩-٦٢١ ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١/٢٤٦ .

ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين ، وقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع ، لزدت :
(اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تبق منهم أحداً) .

وقال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً *** على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** ييسارك على أوصال شلور ممزع
وكان خبيب ، هو الذي سن هذه الصلاة لكل مسلم ، ويستبشر بقاء الله عز وجل ،
فيصلي بين يدي تقديمه للقتل ، رحمه الله ، وأحسن لقاءه (١) .

نماذج من مجاهدي التابعين لهم بإحسان

١ - صله بن أشيم العدوي .. شهيد من أهل الذكر والذاكرين :

وهذا نموذج لرجل من التابعين ، هو صله بن أشيم العدوي ، من كبار التابعين ، من
أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع ، وعبادة ، وزهد ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي
الفراش إلا حبواً ، وله مناقب كثيرة جداً . وكان يكثر من صلاة الليل في الغزوات ، التي
يشارك فيها ، مقاتلاً مع الجيش ، وقال رجل لصله : ادع الله لي .. فقال : (رغبك الله فيما
يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين ، الذي لا يرجى إلا إليه ، ولا يعول في
الدين إلا عليه) .

وكان صله في غزاة ، ومعه ابنه ، فقال : أي بني ، تقدم فقاتل ، حتى احتسبك ..
فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم قاتل صله ، حتى قُتل .

(١) صفوة الصفوة ، ١/٦١٩-٦٢١ ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١/٢٤٦ .

واجتمع النساء عند امراته ، معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جفتن لتنهيفني ،
فمرحباً بكنّ ، وإن كنتن جفتن لتعزيني ، فارجعن (١) .

٢ - عبد الله بن المبارك .. فقيه محدث ، من أهل الذكر والجهاد :

وهذا عبد الله بن المبارك ، أحد أئمة المسلمين ، أدرك جماعة من التابعين ، وروى عن كبار الأئمة ، رجل جمع الله له بين العلم الغزير ، والعمل الوفير ، والإحسان الجزيل ، والجهاد المتصل ، فكلما سمع صيحة ، لى النداء ، وهو مع ذلك كثير النفع لعباد الله ، بعلمه ، وماله ، ويعتني في ذلك بأهل العلم ، ورفقة الحج ، ويجتهد في إدخال السرور على المسلمين .

وابن المبارك ، كثير الخشية ، والمراقبة لله عز وجل ، فإذا أدرك محل استجابة الدعاء ، سأل الله أن ينجيّه من ظمأ يوم القيامة .. وفي هذا المعنى ، يقول سويد بن سعيد :

رأيت عبد الله بن المبارك بمكة ، أتى زمزم ، فاستقى منها ، ثم استقبل الكعبة ، فقال : اللهم إن ابن أبي الموالي ، حدثنا عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال :
« ماء زمزم لما شرب له » (٢) ، وهذا أشربه لعطش القيامة . ثم شربه .

ثم إن أطيب الناس عيشاً ، وأسعدهم حالاً ، من كان عارفاً بالله ، وفي ذلك يقول ابن المبارك :

أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ، قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها . قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل .

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٧/٩ - ١٨ ، تحقيق : د. أحمد أبو ملح وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) الحديث صحيح ، أخرجه ابن ماجه ، في المناسك ، الباب ٧٦ ، وأحمد في مسنده ٣٥٧/٣ .

وعن القاسم بن محمد ، قال : كنا نسافرُ مع ابن المبارك ، فكثيراً ما كان يخطر بباله ،
 فأقول في نفسي : بأي شيء أفضل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس ، هذه الشهرة ؟
 لمن كان يصلي ، إننا لنصلي ، ولئن كان يصوم ، إننا لنصوم ، وإن كان يغزو ، فإننا لنغزو ، وإن
 كان يحج ، إننا لنحج !

قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ، ليلة نتعشى في بيت ، إذ طفيء السراج ،
 فقام بعضنا ، فأخذ السراج ، وخرج يستصيح ، فمكث هنيهة ، ثم جاء بالسراج ، فنظرت
 إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلت من الدموع . فقلت في نفسي : بهذه الحشية ، أفضل
 هذا الرجل علينا ، ولعله حين فقد السراج ، فصار إلى الظلمة ، ذكر القيامة .

ولقد كان عبد الله بن المبارك ، القدوة في الزهد ، والقيام ، والذكر .. كان كذلك
 الإمام المجاهد ، بلسانه ، وسانه ، حتى أصبح مثلاً يحتذى ، وقدوة للمجاهدين ... وهو
 الذي يرسل لصاحبه وأخيه الفضيل بن عياض ، من ساحات الشهادة ، هذه الأبيات ، كما
 رواها الإمام الذهبي في السير ، قال : روى عبد الله بن محمد ، قاضي نصيبين ، ثنا محمد
 بن إبراهيم بن أبي سكتة ، قال أُملي عليّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومئة ، وأنفذها معي
 إلى الفضيل بن عياض ، من طرسوس :

يا عابدا الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فُحورُنَا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيلونا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنايك والغبار الاطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قولٌ صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يُكذَّب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فقرأه ، وبكى ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح^(١) .

لقد ظل ابن المبارك طيلة حياته ، يحج عاماً ، ويغزو عاماً ، حتى توفي في (هيت) من نواحي العراق ، وهو منصرف من الغزو ، سنة إحدى وثمانين ومائة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وعن محمد بن فضيل بن عياض ، قال : رأيت عبد الله بن المبارك في المنام ، فقلت : أي الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : الأمر الذي كنت فيه . قلت : الرباط والجهاد ؟ قال : نعم . قلت : فأي شيء صنع بك ربك ؟ قال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من أهل الجنة ، أو امرأة من الجور العين^(٢) .

وكما كان عبد الله بن المبارك رحمه الله ، العالم الذي يذكره الآخرة برؤيته ، كذلك هو بعد مماته . . فهذا أحد الصالحين ، يمرُّ على قبر عبد الله بن المبارك ، فيتذكر سيرته الزكية في العبادة ، وفي الجهاد ، فانشأ يقول :

مررت بقبر ابن المبارك غدوة فأوسعني وعظاً وليس بناطق
وقد كنت بالعلم الذي في جوانحي غنياً وبالشيب الذي في مفارقي
ولكن أرى الذكرى تنسبه عاقلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق^(٣)

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤١٢/٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ونذير حمدان ، طبعة ثالثة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

والرهف (يسكن الهاء وفتحها) : الغبار .

والسناك : جمع سنك ، طرف حافر الخيل ، وجانبه من قدام .

(٢) انظر : ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ٤ ، ص ١٣٤/١٤٧ ، والذهبي ، في سير أعلام النبلاء ، ٣٧٨/٨ .

(٣) انظر الذهبي ، في سير أعلام النبلاء ، ج ٤١٩/٨ - ٤٢٠ .

٣ - إبراهيم بن أدهم .. الزاهد الأواه ، يركب البحر غازياً ، في سبيل الله :

وهذا إبراهيم بن أدهم ، ويكنى أبا إسحاق ، روى عن جماعة من التابعين . نشأ في بيت شرف ، وعز ، ومال ، وانصرف عنه إلى العبادة ، والزهد ، وانشرح صدره بما آتاه الله من فضله ، وما ذاقه من لذة العبودية لله ، والافتقار إليه ، حتى قال : لو علم الملوك ، وأبناء الملوك ، ما نحن فيه من النعيم ، والسرور ، لجالدونا عليه بالسيوف ، أيام الحياة .

إن هذا النعيم ، يدركه أهل الذكر والجهاد ، ومراقبة المولى عز وجل ، وهكذا كان إبراهيم بن أدهم ، فمن محمد بن الحسين ، قال : ما انتبهت من الليل ، إلا أصبت إبراهيم بن أدهم يذكر الله ، فاعتم ، ثم اتعزى بهذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

وعن عبد الملك بن سعد الدمشقي ، قال : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : أعربنا الكلام فما نلحن ، ولحنا في الأعمال فما نعرب .

وكان مستجاب الدعوة ، حتى إنه ركب البحر ، غازياً في سبيل الله ، عصفت بهم ريح شديدة ، فأشرفوا على الهلاك ، فدعاه : (اللهم أرينا قدرتك ، فارنا عفوك) ، فسكن البحر ، وصار كانه قدح زيت .

وهكذا ظل إبراهيم بن أدهم ، بين الذكر والجهاد ، حتى قال عشية موته :

أوتروا لي قوسي ، فاوتروه ، فقبض عليه ، فمات ، وهو قابض عليه ، يريد الرمي على العدو (١) .

وحسبنا ما قدمنا من سيرة هؤلاء العشرة ، وقد أكثرنا من ذكر الصحابة ، لأنهم النماذج العملية في حسن التأسي ، والافتداء ، بهدي النبي ﷺ ، ورضي الله عن الصحابة الكرام

(١) انظر : ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ١٥٢/٤ - ١٥٨ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢٥/١٠ - ١٤٥ .

الذين رضي الله عنهم ، ورضوا عنه : ﴿ فَأَلْذِذْ أَمْثَلُهُمْ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الاعراف : ١٥٧) .

وجزى الله خيراً من اتبعهم بإحسان : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

وكلهم يتسابق في التحقق بصفات الرجال المؤمنين ، الصادقين ، المجاهدين ، الثابتين
على الحق : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ (الاحزاب : ٢٣) .

الحركات الإسلامية المعاصرة .. تحاول الجمع بين الذكر والجهاد :

وهكذا كانت حركات الجهاد ، والتحرر من الاستعمار ، في بلادنا العربية ،
والإسلامية ، فقد ظلت ساحات الجهاد ، مجالاً لسباحة أهل الذكر ، في أرجاء العالم
الإسلامي .. وقد لا نحتاج إلى التفصيل ، فكتائب الجهاد الإسلامية ، لا يمكن أن تغمر
أو تطمس ، في السودان ، والجزائر ، وفلسطين ، وسائر بلاد المسلمين .

وساحات الجهاد القائمة اليوم في عالمنا الإسلامي ، لجنودها ، في كل ركن أذان ،
 وإقامة ، وصلاة ، وقيام ليل ، وتهجد ، وصيام ، وتلاوة جماعية للقرآن ، والتزام للذكر كثيراً ،
حتى أضاعت وجوه الذاكرين ، فهي ناضرة بذكر الله ، متعلقة بالفرايس العلى ، وتنصل
الأنوار من قبور شهدائها ، بالسما ، ويقوح المسك من دم الشهداء ، وبمعظم الاحتمال
والصبر ، عند جرحى العمليات ، ويكثر الذكر والتسبيح ، من الممسكين بالزناد ، في خط
النار ، وكلهم يتسابقون حول غايتهم في صدق ووفاء :

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ (الاحزاب : ٢٣) .

وأهل الذكر يجتهدون ، حتى تشرح صدورهم ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله : ﴿الَّذِينَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ (الرعد : ٢٨-٢٩) .

وأهل الذكر ، في جهاد متصل الحلقات ، في صلاة ، وركوع ، وسجود ، وفعل الخير ، وعبادة لله ، وطاعة مع جهاد للعدو ، وامتنال لجميع ما أمر الله به ، وانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ، وجهاد في الطاعة ، ورد النفس عن الهوى ، وجهاد في رد وساوس الشيطان ، ومدافعة لأهل الظلم والكفر (١) .

وذلك كله امتثالاً لأمر الله جل جلاله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَيْنَ أَيْكُم إِنْزِهِمْ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج : ٧٧ - ٧٨) .

وقد يبلغون درجة الجبور ، بذكر الله ، حتى يعبر بعضهم عن هذه الحالة ، فيقول : «إن في الدنيا جنة ، من لم يدخلها ، لا يدخل جنة الآخرة» (٢) .

وإنها لمجاهدة متصلة ، وتركية للنفس ، لبلوغ درجة الإحسان في العبادة :

«أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٣) .

وصدق الله العظيم ، القائل في محكم تنزيله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

(١) انظر تفسير القرطبي لخواتيم سورة الحج ، ج ١٢ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ص ٤٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : سؤال جبريل .

القنوت .. دراسة موضوعية في ضوء الكتاب والسنة

ولا ريب في أن مستقبل الإسلام ، يصنعه ، أهل الذكر والجهاد .. ومن حيث هم أهل ذكر ، فإنهم أهل قنوت ، وطاعة ، واتصال بالله ، ولجوء إليه .. فالقنوت ديدنهم .. والوقوف على معالم القنوت ، والاحكام المتعلقة به ، أمر يحتاجه صنّاع مستقبل الإسلام ، في مواجهة التحديات ، التي لا يغنيهم فيها إعداد العدة الحربية ، بل لا بد من العدة الإيمانية ، والقوة الروحية ، والطاقت المعنوية ، ولهذا فإنهم يلتزمون القنوت ، وخاصة قنوت النوازل ، في مواجهة الحرب ، والحصار ، والمقاطعة ، والكيد ، واستبداد قوى الطغيان والاستكبار .

ومن ثم ، هذه دراسة في القنوت ، تشرح معناه في لغة القرآن الكريم ، وتفسر الآيات التي جاء فيها ذكر القنوت ، مع بيان مشروعية قنوت النوازل ، وضرورته في عصرنا هذا ، وتبين آداب القنوت ، وأحكامه ، ومذاهب الفقهاء في وقته ، ومحلّه ، وما يجزىء من القنوت ، وألفاظه ، وشرح غريبه ، وسعة الهدى النبوي في ذلك .

وأهم شيء في القنوت ، أن يتحقق من يدعو ، بالمعاني الجامعة لكلمة القنوت ، من الاشتغال بذكر الله ، والخشوع في الصلاة ، والقيام ، وأن يدعو سبحانه وتعالى ، مقرين له بالعبودية ، مخلصين له الدين : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (البينة : ٥) ، وحفاً : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧) ، ثم إنه : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَآ دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ ﴾ (الحج : ٣٧) ، والمؤمنون يعتمدون في أعمالهم كلها ، على عناية الله ، ويتوكلون عليه وحده : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الملك : ٢٩) .

ونحن مندوبون إلى سؤال الله تعالى ، ودعائه ، مفتقرين إليه ، منكسرين له ، حتى نكون أقرب للإجابة ، ونيل المطلوب ، كما وجهنا نبينا ﷺ : «إِنَّمَا تَنْصُرُونَ ، وَتَرْزُقُونَ بضعفائكم ، بدعائهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم»^(١) .
والله تعالى نسأله أن يجعلنا من عباده القانتين .

دواعي الكتابة عن القنوت :

وهي كثيرة ، علمية ، وعملية ، على نحو ما يلي :

١ - دواعٍ علمية : لبسط العلم ، ونشر سنته ، وآدابه ، وذلك لما يلي :

(أ) خفاء فقه القنوت .

(ب) تعدد الآراء الفقهية ، وتباين مواقف العلماء .

(ج) التنازع حول مسألة القنوت .

(د) غفلة الأمة عن القنوت .

٢ - دواعٍ عملية : نواجهها في حياتنا المعاصر ، مع واقع المسلمين ، اليوم ، ومن ذلك :

(١) الهجمة الشرسة من الكفار على المسلمين ، بمختلف الأشكال ، والأنواع ،

والصور .

(ب) ظلم بعض حكام المسلمين ، للانفصام الحادث في مواقفهم ، وأحكامهم ،

بين السلطان والقرآن ، وبين السيف ، والقلم ، مع التبعية المخزية للكفار ، وموالاته غير

المؤمنين .

(ج) غفلة عامة المسلمين ، عن هذا الواقع المرير ، وإنه لمن النوازل حقاً ، عدم اعتبار

المسلمين لذلك ، وعدم انتباههم إلى أن ما حل بالمسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ،

يستدعي قراءة قنوت النوازل .

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب . والنسائي في كتاب الجهاد ، باب الاستئجار بالضعيف .

(د) حالة الضيق والتمزق ، الذي قد يُصيب بعض من نذر نفسه ، أن يكون مصلحاً ، فيواجه مكر الليل والنهار ، وليس له إلا أن يخلص في دعائه ، والتجائه إلى ربه .
(هـ) دعوة المسلمين كافة ، للإكثار من القنوت ، والتوسع فيه ، وعدم التعرض لمن يقتل ، لأن الأمر في قفه الدين ، واسع .

(و) أهمية القنوت في تزكية النفوس ، وإعلاء القيم الروحية ، وتوثيق صلة العباد بربهم ، والاهتمام بأمر المسلمين ، وتنمية العلاقات الأخوية ، والاجتماعية .

لأجل هذه الدواعي مجتمعة ، كان هذا الفصل ، ولنتقرب بذلك كله إلى ربنا جل جلاله ، وهو قريب من دعاء : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

ونشرع في بيان المقصود ، والله المستعان :

أولاً : معاني القنوت في اللغة

قنت * القنوت :

يرد القنوت في لسان العرب ، على المعاني التالية :

- ١ - الإمساك عن الكلام ، والسكوت .
- ٢ - الدعاء والتسبيح .
- ٣ - الصلاة .
- ٤ - الدعاء في الصلاة .
- ٥ - الخشوع والإقرار بالعبودية .
- ٦ - القيام .
- ٧ - إطالة القيام .
- ٨ - القيام بالطاعة ، التي ليس معها معصية .

فيصرف في كل واحد من هذه المعاني ، إلى ما يحتمله اللفظ في سياقه ، من آية ، أو حديث ، أو عبارة .

(١) قال ابن سيده ، فيما نقله عنه ابن منظور ، في كتابه : « لسان العرب » : القنوت الطاعة ، هذا هو الأصل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ ﴾ (الأحزاب : ٣٥) ، ثم سمي القيام في الصلاة قنوتاً ، ومنه قنوت الوتر .. والقانت : المطيع .

القانت : الذاكر لله تعالى ، كما قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ (الزمر : ٩) .

وقيل : القانت : العابد .

والقانت في قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينَ ﴾ (التحريم : ١٢) ، أي من العابدين .

والمشهور في اللغة ، أن القنوت الدعاء . وحقيقة القانت أنه القائم بأمر الله ، فالداعي إذا كان قائماً ، خص بان يقال له : قانت ، لأنه ذاكر لله تعالى ، وهو قائم على رجليه .. فحقيقة القنوت : العبادة ، والدعاء لله عز وجل ، في حال القيام ، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة ، لأنه إن لم يكن قياماً بالرجلين ، فهو قيام بالشيء بالنية .

قال ابن سيده : والقانت القائم بجميع أمر الله تعالى (١) .

(ب) وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني ، في تفسير معنى القنوت ، أنه :

لزوم الطاعة مع الخضوع ، وفسر بكل واحد منهما في قوله :

١ - ﴿ وَفُؤُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣٨) ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ لَهُ قَنِينُ ﴾ (البقرة : ١١٦) ، (الروم : ٢٦) ، قيل : خاضعون ، وقيل : طائعون .

٢ - وقيل : ساكتون ، ولم يعن به كل السكوت ، وإنما عني به ما قاله عليه الصلاة

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (قنت)

والسلام : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، إنما هي قرآن وتسبيح» ، وعلى هذا قيل : أي الصلاة أفضل ؟ فقال : «طول القنوت» ، أي الاشتغال بالعبادة ، ورفض كل ما سواه . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِيَّاهِمْ كَانَ أُمَّةٌ قَانِتًا ﴾ (النحل : ١٢٠) ، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (التحریم : ١٢) ، ﴿ أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ إِذَا نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ (الزمر : ٩) ، ﴿ أَقْنِي لِرَبِّكِ ﴾ (آل عمران : ٤٣) ، ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الاحزاب : ٣١) ، ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتِ ﴾ (الاحزاب : ٣٥) ، ﴿ فَأَلْصَلِحَتْ قَانِتٌ ﴾ (النساء : ٣٤) (١) .

(ج) وفي زاد المعاد (٢) : أن القنوت يطلق على القيام ، والسكوت ، ودوام العبادة ، والدعاء ، والتسبيح ، والخشوع ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍّ قَانِتُونَ ﴾ (الروم : ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ إِذَا نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ ﴾ (الزمر : ٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ ﴾ (التحریم : ١٢) ، وقال عطاء : «أفضل الصلاة طول القنوت» (٣) ، وقال زيد بن أرقم : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣٨) ، أمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام (٤) ، وقد نظم الشيخ الحافظ زين الدين العراقي ، معاني القنوت ، على ما يلي : (٥) .

ولفظ القنوت أعدد معانيه تجد	مزيداً على عشر معاني مرضية
دعاءً ، خشوعاً ، والعبادة طاعة	إقامتها إقراراً بالعبودية
سكوت ، صلاة ، والقيام ، وطوله	كذلك دوام الطاعة الرابع الغنية

(١) الراغب الأصفهاني ، في مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٨٤ - ٦٨٥ .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ / ٢٧٦ - ٢٨٧ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) البخاري ، العمل في الصلاة ، باب : ما ينهى من الكلام في الصلاة ، وفي كتاب التفسير ، سورة البقرة .. مسلم ، ٥٢٩ ، من كتاب المساجد .

(٥) فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١ .

ثانياً : معاني القنوت في القرآن الكريم

لقد جاء ذكر القنوت ، في القرآن الكريم ، في ثمان سور ، في اثني عشر موضعاً ، ثلاثة مواضع منهن مكية ، في النحل ، والروم ، والزمر ، وبقيتهن مدنيات ، في سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والتحريم ، والأحزاب .

تدور معاني القنوت في هذه المواضع ، على الطاعة ، والاستجابة ، والاستكانة ، والخضوع ، والخشوع ، والإقرار بالعبودية ، ثم تأتي بمعنى الطاعة عامة ، والطاعة لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ ، والطاعة في سكون ، والطاعة في خشوع ، والخشوع في الصلاة ، وطول الركوع في الصلاة .

وعليه ، فالقنوت هو الخاشع ، المطيع لله ورسوله ، العابد ، الراكع ، المستكين له ، الخاضع لأمره ، الخاشع في صلاته ، الذي يطيل في صلاته ، وركوعه . والقنوت مرتبة عالية ، لأنه يُذكرُ بعد الإسلام ، والإيمان ، ولهذا فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها ، وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشيء عنهما .

وهذا بيان تفصيلي ، للمواضع التي جاء فيها لفظ القنوت ، مع تفسير موجز لمعنى القنوت ، في كل موضع ، مع تصنيف الآيات موضوعياً :

الكون كله قانت لله :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴾ (البقرة : ١١٦) ، ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴾ (الروم : ٢٦) .

ومعنى ﴿ قانتون ﴾ في الموضعين : أي مقرون بالعبودية ، مطيعون ، خاشعون لله خاضعون .

القنوت صفة الأنبياء :

كما جاء في ذلك في وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (النحل : ١٢٠) ، وقانتا هنا ، تعني : الخاشع ، المطيع .

فضل القانتين وأهل القيام والتهجد :

﴿ أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ إِذَا تَلَّى سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر : ٩) .

وكلمة قانت هنا ، تعني : الخشوع في الصلاة ، والتهجد .

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾

(البقرة : ٢٣٨) .

الأمر بالقنوت خطاباً لمريم عليها السلام :

﴿ يَمْرُؤُا قُنِّي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٣) .

والقنوت هنا ، بمعنى : طول الركوع في الصلاة ، امتثالاً لأمر الله تعالى .

وفي خطاب القرآن لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن :

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْدَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣١) .

أي : تطع الله ، ورسوله ، وتستجيب .

ثم جاء ذكر القنوت ، على أنه صفة ملازمة ، للمؤمنين ، والمؤمنات :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ ﴾ (الأحزاب : ٣٥) .

أي : المطيعين ، والمطيعات ، في سكون .

﴿الْصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ﴾ (آل عمران : ١٧) ، أي :

الطائعين ، الخاضعين .

﴿قَالَ الصَّادِقُ حَدَّثْتُ قَنِينًا حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾

(النساء : ٣٤) ، أي : مطيعات لأزواجهن .

﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِينَ﴾ (التحریم : ٥) ، مطيعات .

﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾ (التحریم : ١٢) ،

أي : من المطيعات .

ثالثاً : المعنى الاصطلاحي للقنوت

وقد ذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن «القنوت يطلق على معان ، والمراد به هنا الدعاء

في الصلاة ، في محل مخصوص من القيام» (١) .

ومع أن المراد بالقنوت هنا ، هو الدعاء في الصلاة ، فإن هذا المعنى ، يجمع المعاني

الأخرى المرادة من القنوت ، لأنه دعاء ، في قيام ، في صلاة ، لا كلام فيها ، إلا ذكر الله ،

في طاعة لله ، وعبادة خالصة ، خاشعة ، وإقرار بالعبودية .

رابعاً : مشروعية القنوت ، وخاصة قنوت النوازل ، وضرورته في عصرنا هذا

والقنوت سنة نبوية ، وخاصة عند النوازل الكثيرة ، التي تحمل بالامة المسلمة ، وهي

تواجه الحرب ، والحصار ، والمقاطعة ، والكيد ، واستبداد قوى الطغيان ، والاستكبار ، من

(١) العسقلاني ، فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١ .

أعداء الله الظاهرين ، والمستترين ، ولا بد من بيان المقصود من النوازل ، التي يشرع عندها القنوت .

النوازل في حياة المسلمين :

ومن يتأمل اليوم في حال المسلمين ، ويهتم بأمرهم ، ويتابع أخبارهم ، ويسعى مع العاملين لإقامة الدين ، يجد من النوازل ما يدعو المسلمين لدعاء القنوت ، وهذا بيان ذلك :

(أ) حال المسلمين :

- ١ - أغلبية مغلوبة ، وأكثريات مقهورة .. وأقليات مهضومة .
- ٢ - العرب والمسلمون ، مختلفون فيما بينهم ، وبعضهم تبع للأجنبي ، تماماً كما كان الغساسنة والمنافرة .. أو كما كان في اليرموك ، يقاتل الروم المسلمين ، بعدد مساوٍ لهم من العرب تبعاً ..
- ٣ - بيت المقدس في أيدي اليهود ، وأهل فلسطين مشردون ، حرّموا الأمن ، حتى إنهم يُقَتَّلون في مساجدهم .
- ٤ - المسلمون مستضعفون حيثما كانوا .. وقد اجتمعت كلمة الكفر على حربهم ، واستلاب خيراتهم ، وتداعت عليهم كما تنداعى الأكلة على قصعتها ، مخافة أن تعود دولة الإسلام ، وتنتشر دعوته في العالمين ، وتسود حضارته ، وتردهر على ضفاف النيل ، والرافدين ، والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض ، والبحر الأسود ، والقرن الأفريقي ، وقلب أفريقيا ، فضلاً عن أوروبا ، وأمريكا .
- والمسلمون في البوسنة والهرسك ، أسيبحت نساؤهم ، وشرذ أطفالهم ، وقتلوا تفتيلاً ، على مرأى ومسمع من دول العالم . بل تأمرت دول الغرب ، المدعين المسيحية ، حتى تتم تصفيتهم جسدياً وعرقياً ، واستولى أعداء من الصرب والكروات ، على معظم أراضيهم ، ومنعهم مجلس الأمن الدولي ، بقرار ظالم ، من التسلح ، ثم منع المسلمون من مساعدتهم ،

وَأُتِيحت الفرصة لأعدائهم الصرب والكروات ، للقضاء عليهم نهائياً ، حتى لا تقوم للإسلام قائمة في قلب أوروبا : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف : ٨) .

ثم كانت كارثة الشيشان ، التي مكر فيها أعداء الله الروس بالمسلمين الشيشان ، وسكت الغرب ، وتأمرت جمعياته ، المنسوبة للعفو ، وحقوق الإنسان ، وتواطأوا جميعاً ، ومكروا مكرًا كبيراً ، في محاولة منهم لتدمير تلك القوة الإسلامية ، فأخلوا الطريق للروس ، ليقوموا بتنفيذ خططهم في تدمير المباني والمعاني ، وليس بالمسلمين اليوم ، حيلة لنصرة إخوانهم ، بل قد حيل بينهم وبين إخوانهم ، بشتى العوائق ، ومكر الليل والنهار . وما للمسلمين والحالة هذه ، إلا أن يضرعوا إلى الله ، قانتين في صلواتهم ، ومناجاتهم لربهم ، أسوة بنبينا ﷺ .

والقنوت سبيلنا ، لنصرة إخواننا المستضعفين ، نصرهم الله ، وأعلى لواءهم ، وقهر أعداءهم .

٥ - المسلمون ممنوعون عن إقامة دينهم ، والقيام بمقتضيات توحيد الله ، والاتساق مع أنفسهم ، في إقامة شعائر الله ، وشرائعه :

(١) في النظم التربوية ، والتعليمية ، والثقافية ، والإعلامية ، تبعاً وتقليداً للغرب ، وتراثه الوثني ، والمادي .

(ب) وشرع الله معطل ، في المعاملات المالية .. فالربا المحرم ، تقوم عليه مؤسسات ، والغش ، والغرر ، والبيع الفاسدة ، تسود المعاملات المعاصرة .

(ج) والقوانين الجنائية ، مستمدة من القوانين الوضعية ، ذوات الأصول المادية ، والمجوسية ، والوثنية .

(د) وحدود الله معطلة .. ورغم مطالب المسلمين ، فإن مؤسساتهم التشريعية مقهورة ، بالعلمانية ، والتدخلات الخارجية ، حتى لا يتميز المسلمون في قوانينهم .
وليشوهوا صورة النظام الإسلامي ، ويشوشوا عليه ، يفترون على الله الكذب ، ويقولون على الله ما لا يعلمون ، ويصفون الشريعة العادلة بما هي منه براء .

(ب) أهل الكفر مع المسلمين :

١ - الكفار في تطاول ، واستكبار ، واستبداد ، على خلق الله ، واستضعاف ، واستصغار ، واستذلال للمسلمين ..

٢ - جيوش الكفار ، تعيث في الأرض الفساد ..

٣ - وصنائعهم ، وجيوبهم ، مؤتمرة ، تحارب بالسلاح جنود الرحمن ..

٤ - ومن خلع ربة الكفر عن عنقه ، وطرح قوانينه ، ونظمه ، وعاد إلى الله ، متوكلاً عليه ، دارت عليه دوائر البغي ، ومكروا عليه مكرًا كباراً ، وزوروا عليه ، وافترخوا الكذب ، مستخدمين سيطرتهم على المؤسسات الدولية ، والسياسية ، والأمنية ، والمالية ، ومتخذين ستائر الرحمة ، والإغاثة ، والعدل ، وحقوق الإنسان ، لفرض الحصار الظالم ، والمقاطعة الجائرة .

إنّ الظلم ظلّمات يوم القيامة ، وعلى المفتريين الظلمة ، خزي ، وندامة .. ودعوة المظلوم ، ليس بينها وبين الله حجاب .

وعلى دعاة الحق ، أن يوجهوا عداوتهم ، وبغضهم ، إلى هؤلاء الأعداء ، ثم إن على الدعاة إلى الله ، أن يكونوا مخلصين لله ، في القنوت ، والدعاء ، أن يتولاهم بالتأييد ، والتمكين لدينه ، وينصرهم على عدوهم .

خامساً : أحكام القنوت

١ - مشروعية القنوت :

القنوت ، سنة مشروعة عن رسول الله ﷺ ، وقد ذهب مالك إلى أن القنوت في صلاة الصبح ، مستحب ، بينما ذهب الشافعي إلى أنه سنة^(١) ، وقد أثبت الإمام البخاري ، سنة القنوت ، ومشروعيته في الصلاة ، حين يؤب له في كتاب الوتر ، من صحيحه ، قال : (باب القنوت ، قبل الركوع وبعده) ، وقد علق على ذلك صاحب : « فتح الباري في شرح صحيح الإمام البخاري » ، فقال : « أثبت بهذه الترجمة - أي عنوان الباب - مشروعية القنوت ، إشارة إلى الرد على من روي عنه أنه بدعة ، كابن عمر .. وفي الموطأ عنه ، أنه كان لا يقنت في شيء من الصلوات ، ووجه الرد عليه ، ثبوته من فعل النبي ﷺ ، فهو مرتفع عن درجة المباح »^(٢) .

٢ - وقت القنوت :

(أ) صلاة الصبح ، وهو مذهب مالك ، والشافعي^(٣) للحديث الصحيح فيه ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ ، قنت شهراً يدعو عليهم ، ثم ترك ، فأما في الصبح ، فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا) ، وهو حديث صحيح ، رواه جماعة من الحفاظ ، وصححه^(٤) .

(١) النووي ، الأذكار ، ص ٥٧ .

(٢) المسقلاني ، فتح الباري ، ج ٢ / ٢٩٠ .

(٣) النووي ، الأذكار ، وأيضاً المجموع .

(٤) قال النووي : ومن نص على صحته ، الحافظ أبو عبد الله محمد بن علي البلخي ، والحاكم أبو عبد الله ، في مواضع من كتبه ، والبيهقي ، ورواه الدارقطني ، من طرق بإسناد صحيح . انظر النووي في المجموع ، ٥٠٤/٣ -

٥٠٥ . رواه الحاكم أبو عبد الله ، في كتاب الأربعين ، وقال : حديث صحيح ، انظر الأذكار للنووي ، ص ٥٧ .

وقد احتج الشافعي على أن الصلاة الوسطى ، الصبح ، من حيث قرانها بالقنوت ، في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣٨) .

(ب) وذهب أبو حنيفة ، وأحمد ، إلى أن وقت القنوت ، هو الوتر ، في جميع السنة^(١) ، وقد نسب ابن قدامة هذا القول ، لابن مسعود ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وأصحاب الرأي ، وأنه رواية عن الحسن^(٢) . . وفي رواية عن أحمد ، أن وقته الوتر ، في النصف الأخير من رمضان ، قاله ابن قدامة . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه لا يقنت إلا في النصف الأخير من رمضان ، وروي ذلك عن علي ، وأبي ، وبه قال ابن سيرين ، وسعيد بن أبي الحسن ، والزهرى ، ويحيى بن ثابت ، ومالك ، والشافعي ، واختاره أبو بكر الأثرم ، لما روي عن الحسن : (أن عمر جمع الناس على أبي بن كعب ، فكان يصلي لهم عشرين ركعة ، ولا يقنت إلى في النصف الثاني)^(٣) .

وعن ابن عمر : (أنه لا يقنت ، إلا في النصف الأخير من رمضان) . وعنه : لا يقنت في صلاة بحال (٤) .

٣ - مذاهب العلماء في القنوت في الصلوات الخمس :

- (أ) في الصلوات الخمس ، إن نزل بالمسلمين نازلة (وهو قول للشافعي)^(٥) .
- (ب) في الصلوات الخمس مطلقاً ، كما قال قوم^(٦) .
- (ج) عدم القنوت مطلقاً ، في غير صلاة الصبح^(٧) .

(١) ابن قدامة ، المغني ، ج ٢ / ١٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر سنن أبي داود ، ٦٦/٢ (١٤٢٩) .

(٤) المجموع ، ٥٠٤/٣ .

(٥) ابن رشد ، بداية المجتهد ، ١٣٢/١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

والصحيح الذي قام عليه الدليل ، من هدي النبوة ، مشروعية قنوت النوازل ، في الصلوات الخمس ، ويكون الدعاء فيها جهراً ، بعد الرفع من الركوع^(١) .

ويدل على القنوت ، عند النوازل ، في الصلوات الفرائض كلها ، حديث ابن عباس ، قال : (قنت الرسول ﷺ ، شهراً متتابعاً في الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والصبح ، في دبر كل صلاة ، إذا قال : سمع الله لمن حمده ، من الركعة الأخيرة : يدعو عليهم ، على حي من بني سُلَيْم ، وعلى رِغْلٍ ، وذكوان ، وعُصِيَّة ، ويؤمن من خلفه)^(٢) .

٤ - القنوت في شهر رمضان :

(أ) يستحب القنوت ، في النصف الأخير من شهر رمضان ، وقيل في النصف الأول منه ، في الركعة الأخيرة من الوتر^(٣) ، وهو مذهب الشافعية .

(ب) أو في جميع رمضان ، على قول المشافعية .. ونسبه الإمام النووي، إلى الإمام مالك^(٤) .

هـ - محل القنوت في صلاة الصبح :

(١) قبل الركوع ، في الركعة الأخيرة ، وهذا مذهب مالك ، وقد ذكر الشيخ أبو الحسن، صاحب : كفاية الطالب الرباني ، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، أن ظاهر كلام ابن أبي زيد القيرواني - أن القنوت - بعد الركوع أفضل ، ونسب هذا القول إلى حبيب ، وأنَّ المشهور أنَّ القنوت ، قبل الركوع أفضل ، لكونه أصح ، وأضاف الشيخ علي

(١) نيل الأوطار ، ٢٩٢/٢ .

(٢) رواه أبو داود ، وأحمد وزاد : أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام . فقتلوه . قال عكرمة : كان هذا مفتاح القنوت . انظر فقه السنة ، ١٩٧/١٠ .

(٣) الأذكار ، ص ٥٧ ، والمجموع ، ٢٤/٤ .

(٤) انظر المجموع ، شرح المذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

الصعيدي ، صاحب حاشية العدوي ، أنه مع كونه أصبح قبل الركوع ، فلما فيه من الرفق بالمسبوق ، ولأنه الذي استقر عليه عمر رضي الله عنه ، بحضور الصحابة (١) .

وروى محمد بن نصر ، من طريق أخرى ، عن حميد ، عن أنس : (أول من فعل القنوت ، قبل الركوع ، أي دائماً ، عثمان ، لكي يدرك الناس الركعة) .. وفي صحيح البخاري بلفظ : (سأل رجل أنساً ، عن القنوت ، بعد الركوع ، أو عند الفراغ من القراءة ؟ قال : لا ، بل عند الفراغ من القراءة) (٢) .

(ب) بعد الرفع من الركوع ، وهو مذهب الشافعي (٣) .

وتحقيق المقال ، في هذا الموضع ، أن الأمر ، واسع في كل القنوت ، قبل الركوع ، أم بعده ، ويدل على ذلك ، حديث ابن ماجه ، عن أنس ، أنه سئل عن القنوت ، فقال : (قبل الركوع ، وبعده) (٤) .. قال ابن حجر العسقلاني : « إسناده قوي » - ومجموع ما جاء عن أنس بن مالك ، في ذلك ، يدل على أن القنوت ، للحاجة ، بعد الركوع ، لا خلاف فيه عنه في ذلك ، وأما لغير الحاجة ، فالصحيح ، أنه قبل الركوع . وقد اختلف عمل الصحابة ، في ذلك ، والظاهر ، أنه من الاختلاف المباح (٥) .

(١) وانظر أيضاً : الثمر الداني ، شرح رسالة أبي زيد القيرواني ، جمع الأستاذ ، وتحقيق الشيخ صالح عبد السميع الأبي الأزهرى ، ط دار الفكر ، ص ٩٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجزية / ٨ .

(٣) الأئكار ، ص ٥٧ .

(٤) ونس الحديث في سنن ابن ماجه (١١٧٢) ، كما يلي : حدثنا نصر بن علي ، قال : حدثنا سهل بن يوسف ، قال : حدثنا حميد ، عن أنس ، قال : سئل عن القنوت في صلاة الصبح ، قال : كنا نقتن قبل الركوع وبعده . وفي الزوائد : إسناده صحيح . ورجاله ثقات . انظر (١١٧) باب ما جاء في القنوت قبل الركوع . وبعده ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢١٤ ، تحقيق الأعظمي .

والحديث التالي في سنن ابن ماجه ، وهو رقم (١١٧٣) : حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الوهاب ، قال : حدثنا أيوب ، عن محمد ، قال : سئل أنس بن مالك ، عن القنوت ، فقال : (قننت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الركوع) .

(٥) فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١ .

٦ - محل القنوت في الوتر :

في موضع القنوت في الوتر ، أوجه :

- (١) أنه قبل الركوع ، أي بعد القراءة ، وقبل التكبير .
- (ب) الصحيح المشهور ، أنه بعد الركوع ، ونص عليه الإمام الشافعي .
- (ج) يتخير بينهما^(١) .

وذهب بعض الفقهاء ، إلى أنه لم يحفظ عنه عليه السلام ، أنه قنت في الوتر ، إلا في حديث ابن ماجه ، عن أبي بن كعب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يوتر ، ويقنت قبل الركوع^(٢) .

٧ - محل القنوت في النوازل :

بعد الرفع من الركوع جهراً^(٣) .

وفي بيان الحكمة ، من جعل القنوت في النوازل ، بعد الرفع من الركوع جهراً ، يقول ابن حجر العسقلاني :

وظهر لي ، أن الحكمة في جعل قنوت النازلة ، في الاعتدال ، دون السجود ، مع أن السجود مظنة الإجابة ، كما ثبت : «أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد» وثبوت الأمر بالدعاء فيه : أن المطلوب من قنوت النازلة ، أن يشارك المأموم الإمام ، في الدعاء ، ولو بالتأمين ، ومن ثم ، اتفقوا على أنه يجهر به ، خلاف القنوت ، في الصبح ، فاختلف في محله ، وفي الجهر به^(٤) .

(١) النووي . المجموع شرح المهذب ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٢) ونصه في سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢١٥ ، تحقيق د. محمد مصطفى الأمطلي . عن أبي بن كعب : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوتر ، فيقنت قبل الركوع) .. انظر أيضاً : سنن أبي داود ، الحديث رقم ١٤٢٨ - ١٤٢٩ .

(٣) فتح الباري ، ج ٢/٤٩١ .

(٤) المصدر نفسه .

سادساً : ألفاظ القنوت

اختلف الأئمة فيما يقنت به :

(أ) فاستحب مالك القنوت بـ : (اللهم إنا نستعينك ، ونستغفرك ، ونستهديك ، ونرتب إليك ، ونخضع لك ، ونخلع ونترك من يكفرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ، ونسجد ، وإليك نسعى ، ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخاف عذابك ، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق) .

(ب) وقال الشافعي ، وإسحق ، بل يقنت بـ : (اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وقتنا شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا يقضى عليك ، تباركت ربنا ، وتعاليت)^(١) ، وهذا يرويه الحسن بن علي ، من طرق ثابتة ، أن النبي عليه الصلاة والسلام ، علّمه هذا الدعاء ، يقنت به في الصلاة^(٢) .

(ج) قال النووي : فالاختيار ، أن يقول فيه ما رويناه ، في الحديث الصحيح : (اللهم إهدنا فيمن هديت ...) ، قال أصحابنا : وإن قنت بما جاء ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان حسناً ، وهو أنه قنت في الصباح ، بعد الركوع ، فقال : (اللهم إنا نستعينك ، ونستغفرك ...)^(٣) .

(د) وقال قوم : ليس في القنوت شيء ، موقوف ، لأنه دعاء ، وأهم ما يراعى فيه ، الإخلاص في الدعاء^(٤) .

(١) أخرجه أبو داود ، في سننه ، كتاب الوتر ، ٥ ، والترمذي ، كتاب الوتر / ١٠ ، والنسائي في كتاب قيام الليل ، باب : الدعاء في الوتر ، حديث ١٧٤٥ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ولا تعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في القنوت ، شيئاً أحسن من هذا .

(٢) النووي ، الأذكار ، ٥٧ - ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ابن رشد : بداية المجتهد ، ١٣٣/١ .

حكم الجمع بين أدعية القنوت :

ويجوز الجمع بين هذه الأدعية ، الواردة في القنوت ، وغيرها ، مع اختيار جوامع الدعاء ، والإخلاص ، ومراعاة الاعتدال في الدعاء ، ومناسبته ، للمقام ، وحال المصلين .
وقال النووي : ويجوز ، بل يستحب ، مع النشاط ، الجمع بين أدعية القنوت (١) .

ما يجزىء من القنوت :

والدعاء في القنوت ، واسع ، غير مقيد بنص معين ، من أدعية القنوت الواردة ، بل كل دعاء من أدعية القرآن ، أو السنة ، أو مطلق الدعاء ، واف بالمطلوب .

من أدعية القنوت :

وقد تعددت صيغ القنوت ، في السنة النبوية ، ومن ذلك :

١ - الدعاء الأول :

(اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت) ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .. ولا نعرف عن النبي ﷺ ، في القنوت شيئاً ، أحسن من هذا .

وفي رواية ذكرها البيهقي ، أن محمد بن الحنفية - وهو ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال : إن هذا الدعاء ، هو الدعاء الذي كان أبي يدعو به ، في صلاة الفجر ، في قنوته .

قال النووي (٢) : ويستحب أن يقول ، عقب هذا الدعاء : (اللهم صل على محمد

(١) النووي ، الأذكار ، ص ٥٨ .

(٢) النووي ، الأذكار ، ص ٥٨ .

وعلى آل محمد وسلم) .. فقد جاءت رواية النسائي ، في هذا الحديث ، بإسناد حسن :
(وصلى الله على النبي) (١).

٢ - الدعاء الثاني :

(اللهم ، إنا نستعينك ، ونستغفرك ، ولا نكفرك ، ونؤمن بك ، ونخلك ، ونترك
من يفجرك ، اللهم ، إياك نعبد ، ولك نصلي ، ونسجد ، وإليك نسعى ، ونحفد ، نرجو
رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق . اللهم ، عذب الكفرة (٢) ،
الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ، ويقاثلون أولياءك . اللهم ، اغفر
للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، وأصلح ذات بينهم ، وألف بين قلوبهم ،
واجعل في قلوبهم الإيمان ، والحكمة ، وثبتهم على ملة رسول الله ﷺ ، وأوزعهم أن
يوفروا بعهدك ، الذي عاهدتهم عليه ، وانصرهم على عدوك ، وعدوهم ، إله الحق ،
واجعلنا منهم) (٣).

٣ - الدعاء الثالث : دعاء قنوت النوازل :

وهذا النموذج لما كان يدعو به النبي ﷺ ، في قنوت النوازل ، يدعو فيها على أعدائه

(١) سنن النسائي ، كتاب قيام الليل ، باب : الدعاء في الوتر ، حديث ١٧٤٦ .

(٢) نص الرواية عن عمر : (اللهم عذب كفرة أهل الكتاب) ، واختارنا الإطلاق في الدعاء ، وهو اختيار الإمام النووي ،
قال في «المجموع» . ٤٩٨/٥ . وقوله : (اللهم عذب كفرة أهل الكتاب) ، إنما اقتصر على أهل الكتاب . لأنهم
كانوا يقاثلون المسلمين في ذلك العصر ، وأما الآن ، فالخيار أن يقال : (عذب الكفرة) ، ليعم أهل الكتاب ،
وغيرهم من الكفار ، فإن الحاجة إلى الدعاء على غيرهم أكثر ، والله أعلم .

(٣) المصدر نفسه . (المجموع ، شرح المذهب ، للإمام النووي) ، ج ٣ ، ص ٤٩٨ ، وغريب الفاظ الحديث ، هي :
نستعينك : نطلب منك الإعانة على طاعتك .. نستغفرك : نطلب منك المغفرة ، وهي الستر عن الذنوب ، فلا تؤاخذنا
بها .. نخلك : أي تترك .. نخضع ونذل ، ونخلع الأركان كلها ، لوجدانيته .. نسعى : إلى الجمعة ،
والجماعة ، والصح ، والطاعات .. يفجر : أي يلحد في صفاتك .. نحفد : أي نسارع .. الجد : الحق .. ملحق :
يكسر الحاء على المشهور ، ويقال بفتحها . ذكره ابن قتيبة وغيره .. ذات بينهم : أمورهم ومواصلتهم .. الحكمة :
هي كل ما منع من القبيح .. أوزعهم : ألهمهم . واجعلنا منهم : أي ممن هذه صفته .

الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقاتلون أوليائه ، أو يدعو للمستضعفين من المؤمنين ، مع الدعاء على الكفار :

١ - عن ابن عمر ، رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ ، إذا رفع رأسه من الركوع ، في الركعة الآخرة من الفجر ، يقول : (اللهم ، العن فلاناً وفلاناً ، بعدما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد) فانزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) (١) . وفي الحديث ، دليل مشروعية الجهر بالقنوت .

٢ - عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، كان إذا أراد أن يدعو على أحد ، أو أن يدعو لأحد ، قنت بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد « اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، قال يجهر بذلك ويقول في صلاة الفجر : « اللهم العن فلاناً وفلاناً » ، حين من أحياء العرب ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) (٢) .

وفيه نص الراوي على أن النبي ﷺ ، قد جهر . ودلالة ذلك واضحة ، في أنه لا يجوز أن يكون القنوت سبباً ، أو لعناً ، وخاصة إذا كان مع المخالفين في الرأي ، من أهل القبلة . ولا شك ، أن ذلك خلاف هدي كتاب ربنا تعالى ، وسنة نبينا ﷺ .

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي / ٢١ ، وكتاب التفسير ، سورة ٣ ، ٩ .. والنسائي ، كتاب التطبيق ، ٣١ .. وأحمد ، في المسند ٩٣/٢ ، ١٤٧ ، ٢٥٥ .

(٢) البخاري ، في صحيحه ، كتاب الأذان ، ١٢٨ ، كتاب الاستسقاء ، ٩٨ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، وأحمد ، في المسند ٢٢٩/٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ، وانظر الذكاري ، للنووي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٤ - الدعاء الرابع : نموذج من جوامع الدعاء ، في قنوت النوازل ،
ليختار منها ، ما يوافق الحال ، والنشاط .

* اللهم ، إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ،
لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

* اللهم إنك عفو ، تحب العفو ، فاعف عنا .

* اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ونعوذ بك من غلبة
الدين ، وقهر الرجال .

* اللهم اجعل عملنا كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

* اللهم ارزقنا الإخلاص في العمل ، والتوفيق لما ترضى ، والقبول عندك .

* اللهم إنك عفو كريم ، تحب العفو ، فاعف عنا .

* اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، وألف بين قلوبهم ، وأصلح ذات
بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم .

* اللهم العن الكفرة ، الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، ويقاثلون أولياءك .

* اللهم خالف بين كلمتهم ، وزلزل أقدامهم ، وأنزل بهم بأسك ، الذي لا يرد عن القوم
المجرمين .

* ونج اللهم المستضعفين من المسلمين ، وانصر المجاهدين ، في مشارق الأرض ومغاربها .

* اللهم احفظنا ، وانصرنا ، ودعوتنا ، وأمتنا .. ومكن دينك الذي ارتضيت ، وأيد اللهم
جنودنا ، وثبت أقدامهم ، وسدد رميتهم ، وأشرح صدورهم ، وأذهب غيظ قلوبهم ،
وانصرهم نصرك المؤزر المبين ، على عدوك وعدوهم ، واكفنا شر أعدائنا ، من الساعين
بالفتنة ، والباغين للبراء العيب ، والمحادين الله ، ورسوله ، والمؤمنين .

* اللهم اكفنا شرهم بما شئت ، وكيفما شئت ، إنك على ما تشاء قدير .
 * اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم ، وانصرنا عليهم .
 * اللهم أغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك ،
 وارفع عنا الغلاء ، والوباء ، وما لا يكشفه عنا غيرك .
 * اللهم بارك لنا في زرعنا ، وضرعنا ، وأرضنا ، واجعل سائر بلادنا سخاءً ، رخاءً ، وأماناً ،
 وسلاماً ، وارحم أمة محمد ﷺ عامة ، وارحم أمتنا رحمة من لدنك خاصة ، وقها شر
 الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، واهد اللهم ولاة أمورنا إلى ما فيه خير العباد والبلاد ،
 واهدهم إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وأعنتهم في دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، وقهم
 شر من حولهم ، وما حولهم ، وارزقهم بطانة الخير ، التي تأمرهم بالمعروف ، وتحضهم
 عليه ، وجنبهم بطانة السوء ، وانشر اللهم في بلادنا لواء العدل والإحسان ، وألف بين
 قلوب عبادك يا كريم .

سابعاً : آداب وأحكام

١ - صيغة دعاء القنوت :

(أ) يستحب أن يدعو الإمام بصيغة الجماعة .
 (ب) ويكره أن يخص نفسه بالدعاء ، لما في سنن أبي داود ، والترمذي ، عن ثوبان
 رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يؤم عبد قومًا ، فيخص نفسه بدعوة
 دونهم ، فإن فعل فقد خانهم)^(١) .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، ٤٣ ، والترمذي ، كتاب الصلاة ، ١٤٨ ، وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٣١ ، ومسند
 أحمد ، ٥/٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، وانظر النووي ، الأذكار ، ص ٥٩ .

٢ - رفع اليدين في دعاء القنوت :

يستحب رفع اليدين في دعاء القنوت (١) ، لما صح عن أنس ، رضي الله عنه ، في قصة القرءاء ، الذين قُتلوا رضي الله تعالى عنهم ، قال : (لقد رأيت رسول الله ﷺ ، كلما صلى الغداة يرفع يديه ، يدعو عليهم ، يعني على الذين قتلوهم) ، قال البيهقي : ولأن عدداً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، رفعوا أيديهم في القنوت . ثم روي عن أبي رافع ، قال : (صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقلت بعد الركوع ، ورفع يديه ، وجهه بالدعاء) .

وفي مسح الوجه باليدين ، قولان ، ونسب النووي إلى البيهقي ، أن الصحيح عدم المسح ، لأنه لم يحفظ فيه شيء عن أحد من السلف ، وإن كان يروى عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة ، فاما في الصلاة فهو عمل لم يثبت فيه خير ، ولا أثر ، ولا قياس (٢) .

٣ - تأمين المأمومين :

ويستحب للمأموم أن يؤمن على الدعاء ، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (قنت رسول الله ﷺ ، وكان يؤمن من خلفه) ، ويستحب له أن يشاركه في الثناء ، لأنه لا يصح التامين على ذلك ، فكانت المشاركة أولى (٣) .

٤ - القنوت بين الإجهار والإسرار :

(أ) قال الشافعية : إن كان المصلي منفرداً ، أسر به ، وهكذا ، إن كان مأموماً ، ولم يجهر الإمام ، قنت المأموم سراً ، كسائر الدعوات ، فإنه يوافق فيها الإمام سراً .

(١) المجموع ، ٣/ ٥٠٠ .

(٢) المجموع ، ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٣) المجموع ، ٣/ ٤٩٢ .

(ب) وإن كان إماماً ، جهر ، على المذهب الصحيح المختار ، الذي ذهب إليه الأكثرون .

(ج) وقيل : يسر ، كسائر الدعوات في الصلاة .

(د) إن جهر الإمام بالقنوت ، فإن كان المأموم يسمعه ، أمن على دعائه ، وشاركه في الثناء في آخره ، وإن كان لا يسمعه قنت سرّاً .

(هـ) في غير صلاة الصبح ، إذا قنت ، فالغرب ، والعشاء كالصبح .

(و) والجهر بالقنوت في جميع الصلوات ، مسنود بسنة صحيحة ، ففي صحيح البخاري في باب تفسير قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) ، عن أبي هريرة : (أن النبي ﷺ ، جهر بالقنوت في قنوت النازلة) .

هـ - القنوت بين الترك والاستمرار :

ولا يعني ما ورد من تركه ﷺ للقنوت ، أكثر من ترك الدعاء ، واللعن على الكفار ، في قنوت النوازل ، بعد ما نزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ .

ويدل على ذلك ما صح عن النبي ﷺ ، مما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قنت في صلاة العتمة شهراً يقول في قنوته :

« اللهم اغفر الوليد بن الوليد »

« اللهم اغفر سلمة بن هشام »

« اللهم اغفر عياش بن ربيعة »

« اللهم اغفر المستضعفين من المؤمنين »

« اللهم اشدد وطأتك على مضر »

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف » .

قال أبو هريرة : وأصبح ذات يوم ، فلم يدع لهم ، فذكرت ذلك له ، فقال : « أو ما تراهم قد قدموا » (١) .

يقول الإمام النووي ، في تأييد هذا المذهب : أما الجواب عن حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما ، في قوله : « ثم تركه » ، فالمراد ترك الدعاء على أولئك الكفار ، ولعنتهم فقط ، لا ترك جميع القنوت ، أو ترك القنوت في غير الصبح .. وهذا التأويل متعين ، لأن حديث أنس ، في قوله : (لم يزل يقنت في الصبح حتى فارق الدنيا) ، صحيح صريح ، يجب الجمع بينهما . هذا الذي ذكرناه متعين للجمع ، وقد روى البيهقي ، بإسناده ، عن عبد الرحمن بن مهدي الإمام ، أنه قال : إنما ترك اللعن ، ويوضح هذا التأويل ، رواية أبي هريرة السابقة ، وهي قوله : (ثم ترك الدعاء لهم) .

والجواب عن حديث سعد بن طارق ، أن رواية الذين أثبتوا القنوت ، روي عنهم زيادة علم ، وهم أكثر ، فوجب تقديمهم ... (٢) .

٦ - رأي المنكرين استمرار القنوت ، والتزامه في صلاة الصبح :

والمنكرون للقنوت في صلاة الصبح ، على سبيل الالتزام المستمر ، يذكرون أنه كان قنوت النوازل ، أو يؤولونه بمعنى من معاني القنوت ، وهو هنا ، طول القيام بعد الركوع ، ولم يكن طول القيام ، مجرد سكوت ، بل كان فيه الدعاء والثناء . والمراد بالدعاء هنا ، مطلق الدعاء ، لا دعاء القنوت المحفوظ . بل كان فيه الثناء على الله تعالى ، وتمجيده ، والدعاء .. وقد انتصر لهذا الرأي ، ابن قيم الجوزية ، وتبعه الشوكاني ، فأيده في عدم الاستمرار في قنوت الصبح ، وأنه مختص بالنوازل في الصلوات كلها ، دون تخصيص. (٣)

(١) البخاري .

(٢) انظر النووي ، المجموع شرح المذهب . ج ٢ ، ص ٥٥٥ .

(٣) انظر ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

نيل الأوطار . ج ٢ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

٧ - الإنصاف والاعتدال في التزام القنوت في صلاة الصبح :

ومع أن ابن القيم قد وقف مع المنكرين استمرار القنوت ، والتزامه في صلاة الصبح ، لكنه وقف موقف الاعتدال ، والإنصاف ، من مخالفه في الرأي ، حين لخص الهدي النبوي في القنوت فقال : (١)

والإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف ، أنه ﷺ جهر ، وأسر ، وقت ، وترك ، وكان إسراره أكثر من جهره . وتركه القنوت أكثر من فعله ، فإنه إنما قنت عند النوازل ، للدعاء لقوم ، والدعاء على آخرين ، ثم تركه لما قدم من دعا لهم ، وتخلصوا من الأسر ، وأسلم من دعا عليهم ، وجاءوا تائبين ، فكان قنوته لعارض ، فلما زال ترك القنوت ، ولم يختص بالفجر ، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب ، ذكره البخاري في صحيحه عن أنس (٢) .

ثم خلاص في بيان الهدي النبوي في القنوت ، حيث قال :
وكان هديه ، القنوت في النوازل خاصة ، وتركه عند عدمها ، ولم يكن يخصه بالفجر ، بل كان أكثر قنوته فيها ، لاجل ما شرع فيها من التطويل ، ولاتصالها بصلاة الليل ، وقربها من السحر وساعة الإجابة ، وللتنزل الإلهي ، ولأنها الصلاة المشهودة ، التي شهدها الله وملائكته ، أو ملائكة الليل والنهار (٣) .

٨ - سعة الهدي النبوي في القنوت ، فعلاً وتركاً :

الامر في القنوت ، واسع أيضاً ، التزاماً له في صلاة الفجر ، أو الوتر ، أو عند النوازل ، كما سبق بيان ذلك في الأدلة ، مع عرضنا لأقول الفقهاء ، والمجتهدين ، وقد أحسن صاحب

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ١ / ٢٧٢ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومبدالقادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط أولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٢) البخاري ، كتاب الأذان ، ١٢٦ ، وكتاب الوتر ، ٧ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، ٣٠٥ ، وأبو داود . كتاب الوتر ، ١٠ ، والترمذي ، كتاب الصلاة ، ١٧٧ .

(٣) زاد المعاد ، ج ١ / ٢٧٢ .

(زاد المعاد في هدي خير العباد) ، حيث مدح الفقهاء من أهل الحديث ، بأنهم أسعد بالهدي النبوي ، من حيث أنهم يقتنون حيث قنت رسول الله ﷺ ، ويتركونه حيث تركه ، فيقتدون به في فعله وتركه .

ويقولون : فعله سنة ، وتركه سنة ، ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه ، ولا يكرهون فعله ، ولا يرونه بدعة ، ولا فاعله مخالفاً للسنة ، كما لا ينكرون على ما أنكره عند النوازل ، ولا يرون تركه بدعه ، ولا تاركه مخالفاً للسنة ، بل من قنت فقد أحسن ، ومن تركه فقد أحسن (١) .

ولعل هذا التسامح ، هو الأقرب لسنة من وصفه ربه بالرافة ، والرحمة ، في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) ، من نجاه ربه ،

من أن يكون فظاً غليظ القلب ، حاشاه ، بل كان خلقه القرآن ، يعفو ، ويصفح ، ويستغفر لامته ، ويشاورهم في الأمر ، فإذا عزم على إمضائه ، فإنه يتوكل على الله تعالى ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران : ١٥٩) .

(١) انظر ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

الخلاصة

* وهي إيجاز ما انتهت إليه هذه الدراسة ، في القنوت ، وأحكامه ، وآدابه ، وهو اختيارنا ، ولا بد من الرجوع لما فصلته من أحكام قنوت النوازل ، وخاصة ذكر دواعيه ، في حياتنا المعاصرة اليوم ، في وجه التحديات القائمة ، والأخطار .. وإنه لمن النوازل حقاً ، عدم اعتبار المسلمين لذلك ، وعدم انتباههم ، ومعرفتهم إلى أن ما حل بالمسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، يستدعي قراءة النوازل كما فصل هذا الفصل .

* تدور معاني القنوت ، على الطاعة ، والاستجابة ، والاستكانة ، والخضوع ، والخشوع ، والإقرار بالعبودية ، ثم تأتي بمعنى الطاعة عامة ، والطاعة لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ ، والطاعة في سكون ، والطاعة في خشوع ، والخشوع في الصلاة ، وطول الركوع في الصلاة .. وعليه ، فالقنوت هو الخاشع في صلاته ، الذي يطيل في صلاته ، وركوعه .

* القنوت ، سنة مشروعة ، عن رسول الله ﷺ ، وقد ذهب مالك إلى أن القنوت في صلاة الصبح مستحب ، فيما ذهب الشافعي إلى أنه سنة . وقد أثبت الإمام البخاري سنة القنوت ، ومشروعيته في الصلاة ، حين يوب له في كتاب الوتر ، من صحيحه ، قال : (باب القنوت قبل الركوع ، وبعده) ، وقد علق على ذلك صاحب « فتح الباري » فقال : أثبت بهذه الترجمة - أي عنوان الباب - مشروعية القنوت ، إشارة إلى الرد على من روي عنه ، أنه بدعة كابن عمر .

* وقت القنوت :

في صلاة الصبح ، وهو مذهب مالك ، والشافعي ، للحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ ، قنن شهراً ، يدعو عليهم ، ثم ترك ، فأما في الصبح ، فلم يزل يقنن ، حتى فارق الدنيا) .

وذهب أبو حنيفة ، وأحمد ، إلى أن وقت القنوت ، هو الوتر في جميع السنة .. وفي رواية عن أحمد ، أن وقته الوتر ، في النصف الأخير من رمضان .. والصحيح الذي قام عليه الدليل من هدي النبوة ، مشروعية قنوت النوازل ، في الصلوات الخمس ، ويكون الدعاء فيه جهراً ، بعد الرفع من الركوع .

* محل القنوت في الصلاة الصبح :

قبل الركوع ، في الركعة الأخيرة ، وهذا مذهب مالك .. قال الشيخ علي الصعيدي ، صاحب حاشية العدوي : إنه مع كونه أصبح قبل الركوع ، لما فيه من الرفع بالمسبوق ، ولأنه الذي استقر عليه عمر رضي الله عنه ، بحضور الصحابة ، وما جاء عن أنس في ذلك ، يدل على أن القنوت للحاجة بعد الركوع لا خلاف فيه عنه ، وأما لغير الحاجة ، فالصحيح أنه قبل الركوع ، وقد اختلف عمل الصحابة في ذلك ، والظاهر أنه من الاختلاف المباح .

* محل القنوت في النوازل :

بعد الرفع من الركوع ، جهراً ، وفي بيان الحكمة من جعل القنوت في النوازل بعد الرفع من الركوع جهراً ، يقول ابن حجر العسقلاني : (وظهر لي أن الحكمة في جعل قنوت النازلة ، في الاعتدال ، دون السجود ، مع أن السجود مظنة الإجابة ، كما ثبت «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» ، وثبت الأمر بالدعاء فيه ، أن المطلوب من قنوت النازلة أن يشارك المأموم الإمام ، ولو بالتأمين ، ومن ثم اتفقوا على أن يجهر به ، بخلاف القنوت في الصبح ، فاختلف في محله ، وفي الجهر به .

* يجوز الجمع بين الادعية الواردة في القنوت ، وغيرها ، مع اختيار جوامع الدعاء ، والإخلاص ، ومراعاة الاعتدال في الدعاء ، ومناسبته للقيام ، وحال المصلين .

* يستحب رفع اليدين ، في دعاء القنوت ، ويستحب للمأموم أن يؤمن على الدعاء ، لما روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قنت رسول الله ﷺ ، وكان يؤمن من خلفه) .

❖ لا يعني ما ورد من تركه ﷺ للقنوت ، أكثر من أنه ترك الدعاء على الكفار ، ولعنهم في قنوت النوازل ، لنزول قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، كما نجد ذلك في نص الحديث .

❖ الإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف ، أنه ﷺ ، جهر ، وأسر ، وترك ، وقتت ، وكان إسراره أكثر من جهره .

❖ الأمر في القنوت ، واسع ، التزاماً له في صلاة الفجر ، أو الوتر ، أو عند النوازل ، كما سبق ذلك مع الأدلة ، وبيان آراء الفقهاء .

نسأل الله تعالى أن يتقبلنا وقراء هذا الفصل ، والمسلمين كافة ، وأن يوفقنا أجمعين لما يحب ، ويرضى ، وأن يجعلنا من عباد الله المخلصين ، القانتين ، الخاشعين ، المطيعين ، العابدين ، الراكعين ، الساجدين ، المسيحين ، المفتقرين إليه جل جلاله ، والمفوضين أمرنا كله إليه تعالى ، كما نسأله تعالى أن يفتحها في الدين ، وأن يزيدنا علماً . سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

وصلى الله تبارك وتعالى ، وسلم تسليماً كثيراً ، على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه .
سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

تطبيق الشريعة الإسلامية وأثره في إصلاح المجتمع

وتتناول هذه الدراسة ، الشريعة ، وأثر تطبيقها في استقرار المجتمع ، وإصلاحه ، فنبين أولاً ، معنى الدين ، وأنه يشمل جميع علاقات الحياة الدنيا ، والآخرة ، من العبودية لله تعالى وطاعته ، والاستسلام لأمره ، والتزام الصراط المستقيم ، والاحتكام لشرع الله ، وإنفاذ أحكام القوانين الإسلامية ، في شؤون الحياة ، كلها ، الأسرية ، والمدنية ، والجنائية ، حتى يكون الدين كله لله تعالى ؛ مع بيان معنى الشريعة ، وأنها ما شرع الله لعباده من الدين ، وشمولها للعقيدة ، والشعائر ، والشرائع - خلافاً للفهم المتأخر ، من أنها القوانين ، وربما الحديثة منها خاصة - ثم نتناول معنى الحدود ، لغة ، واصطلاحاً ، والتطور الدلالي لها ، مع بيان أثر إقامة الحدود ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، عامة ، في إصلاح المجتمع ، عقيدياً ، وأخلاقياً ، واقتصادياً ، وأمنياً ، وبركة في الحياة ، وتجاوباً شعبياً ، وما يحققه إنفاذ كل حد من مصالح للأفراد ، والجماعات ، وما يؤدي إليه ذلك ، من إصلاح المجتمع ، واستقراره ..

كما نتناول أيضاً ، أثر التوبة ، في رفع الحدود ، وإسقاط العقوبة ، لفتح باب الأمل في رحمة الله للتوابين المتطهرين : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وخُتمت الدراسة ، ببيان خصائص الشريعة الإسلامية .

من معاني .. « الدين »

الديَّان : من صفات الله ، عز وجل ، ومعناها : الحكم القاضي .. والديان : القهار ، وهو فعَّال ، من دان الناس ، أي قهرهم على الطاعة ، يقال : دنتهم فدأنا : أي قهرهم فطاعوا .

وفي حديث أبي طالب ، قال له عليه الصلاة والسلام : «أريد منهم - أي من قريش - كلمة واحدة تدين لهم العرب»^(١) ، أي تطيعهم ، وتخضع لهم .

الدين : الجزاء ، والمكافأة ، ويوم الدين ، يوم الجزاء ، وفي المثل : كما تدين تدان ، أي كما تجازي ، تُجازى . وقوله تعالى : ﴿ أَتَى النَّالَمْدِيُونَ ﴾ (الصفات : ٥٣) ، أي : مجزيون ، محاسبون ، ومنه الديَّان ، في صفة الله عز وجل .

الدين : الحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة : ٣) ، وقيل : معناه ، مالك يوم الجزاء .

والدين : الطاعة ، وقد دنته ودنت له ، أي أطعته ، يقال : دان بكذا ، ديانة ، وتدين به ، فهو دين ، ومتدين .

والدين : الإسلام ، وقد دنت به .

والدين : العادة ، والشأن ، لقول العرب : ما زال ذلك ديني ، وديديني ، أي عادتي ، وفي الحديث : «الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله»^(٢) .

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

(٢) رواه ابن ماجه .. (وضعه الألباني) .

قال أبو عبيدة : (دان نفسه ، أي اذلها ، واستعبدها ، وقبل حسابها)
وفي التنزيل العزيز : ﴿ مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ (يوسف : ٧٦) ،
قال قتادة : في قضاء الملك ، أي الأغراض .. دان الرجل ، إذا عز .. ودان ، إذا أطاع ..
ودان إذا عصى .. ودان إذا اعتاد ، خيراً أو شراً ... ودان إذا أصابه الدين ، وهو داء .
وقوله تعالى : ﴿ إِيَّا نَا لَمَدِيُونُ ﴾ (الصفات : ٥٣) أي مملوكون . وقوله تعالى :
﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا ﴾ (الواقعة : ٨٦) ، قال الفراء : غير مدينين ، أي
مملوكين ، قال : سمعت غير مجزين .

ودنته ، أدينه ، ديناً .. سسته .. ودنته ، ملكته .. ودنته القوم : وليته سياستهم .

الدين : يتدين به الرجل .

الدين : السلطان .

الدين : الورع .

الدين : القهر .

الدين : المعصية .

الدين : الطاعة ^(١) .



معاني الدين في لغة القرآن الكريم

ترد كلمة الدين ، في آيات القرآن الكريم ، على وجوه من المعاني المتعددة ، تفهم
بحسب ورودها ، في سياق المعاني المرادة في مواضعها من تلك الآيات ، وقد تناول الحكيم
الترمذي هذه المعاني بالدراسة ، والتحليل ، في كتابه : «تحصيل نظائر القرآن» ، فقال :
وأما قوله تعالى : ﴿ الدين ﴾ على كذا وجه : فالدين هو الخضوع ، يقال : دان له ،

(١) كقوله تعالى : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ (يوسف : ٤٠) .

أي خضع له ، مشتق من الدون ، وكل شيء ، دون شيء فهو له خاضع ، فخلق آدمي ، والكبير فيه ، وراثة من صلابة الأرض وقوتها ، واقتضاهم أن يدينوا له ، أي يخضعوا له ، ويخضعوا لعظمته .

فالحضوع ، والخشوع ، مبتدأ من القلب إلى الأركان ، حتى يظهر على الأركان بالائتمار بأمره ، والتناهي عن نهيه ، والقبول لأحكامه ، والانقياد له .

١ - شهادة ألا إله إلا الله : وإنما صار الدين في هذا المكان ، شهادة ألا إله إلا الله^(١) ، لأن الموحّد لا يشهد بهذه الشهادة ، إلا بعد خضوعه لله ، وسقوطه بين يديه تذلاً ، وتسليماً لرقبته .

٢ - الحساب : وإنما صار الدين « الحساب »^(٢) في مكان آخر ، لأنه إذا جاء الحساب ، دان العبد ، فلم يقدر أن يجحد ، فإن جحد ، نطقت الجوارح ، فالحساب من الله ، مطالبته ما وجب له على العبد ، فيما عهد إليه ، وفيما قلده ، وفيما ضمن العبد ، فيطالبه بالوفاء لذلك .. فذاك كله خضوع ، يحل بالعبد .

٣ - حكم الله وقضاؤه : وإنما صار الدين ، حكم الله وقضائه في مكان آخر : لأنه إذا حل بالعبد حكمه وقضاؤه ، دان العبد له .

٤ - حكم الملك الذي حبس يوسف عليه السلام : وإنما صار الدين حكم الملك^(٣) ، الذي حبس يوسف عليه السلام ، لما وضعنا أن الدين : الخضوع عند الحكم .

٥ - الإخلاص ، والإسلام ، والإيمان : وإنما صار الدين الإخلاص ، والإسلام ، والإيمان^(٤) : فإنما أسلم المسلم ، وأشرك المشرك ، خضوعاً لله ، وللوثن ، ليقربه إلى الله

(١) كقوله تعالى : ﴿ أَمْرٌ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ (يوسف : ٤٠) .

(٢) كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (الصافات : ٢٠) .

(٣) كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيُتَّخَذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ (يوسف : ٧٦) .

(٤) كقوله تعالى : ﴿ إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران : ١٩) .

زلفى ، لذلك وصف الله في تنزيله عز شأنه فقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر : ٣) وإنما سمي شرك المشرك ، وكفره ، ديناً ، لأنه اتخذ إلهاً من دونه ، فخضع له ، فقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ٦) ، أي لكم خضوعكم لمن خضعتم له ، ولي خضوعي لمن خضعت له ^(١) .

معنى الدين في الاصطلاح :

والدين بمعناه الاصطلاحي ، شامل لمعانيه الواردة في لغة القرآن الكريم ، من أنه الحساب ، والجزاء ، والمكافأة ، وبمعنى الطاعة ، والخضوع ، والانقياد لأمر الله عز وجل ، وبمعنى الحكم ، والقضاء ، والقانون الجنائي ، والحدود خاصة ، وهذا المعنى الأخير بحاجة إلى بيان ؛ لكثرة الشبه ، التي آثارها عليه الغزو الأجنبي ، وما تبعه من نظم الحكم العلمانية . وقد جاء بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَخِيذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ (يوسف : ٧٦) ، أي في سلطانه ، وحكمه ، وقضائه .. أما في سورة النور فقد جاءت الآية : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النور : ٢) ، في إشارة خاصة إلى الحدود ، وهي جزء من أحكام القوانين الجنائية ، التي يختص بالحكم فيها الحاكم ، أو من أنابه عنه .

ويلزم من ذلك ، وجوب إقامة الدولة الإسلامية ، والحكم بالشريعة الإسلامية ، مع ما يتبع ذلك من فقه سياسة الأمة ، وسيادة الدولة .

(١) الحكيم الترمذي ، تحصيل نظائر القرآن : تحقيق حسني نصر زيدان ، ط ١ ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، القاهرة . من ١١٩/١٢١ .

معنى .. « الشريعة »

أولاً : معنى الشريعة في اللغة العربية :

الشَّرْعُ ، والشريعة ، في كلام العرب : مَشْرَعُ الماء ، وهي موردُ الشَّارِبِ ، التي يَشْرَعُها الناسُ ، فيشربون منها ، ويستقون .. والعرب لا تسميها شريعة ، حتى يكون الماء عدلاً ، لانقطاع له ، ويكون ظاهراً مَعِيناً ، لا يُسْقَى بالرُّشَاءِ .. كما ترد كلمة (شرع) بمعنى أظهر، وشرع فلان ، إذا أظهر الحق ، وقمع الباطل .

والشريعة : العادة ، وهذا شرعة ذلك ، أي مثاله .. والشارع ، الطريق الأعظم ، الذي يَشْرَعُ فيه الناس عامة . وأشرع الشيء : رفعه جداً ، وحيثانُ شُرُوعٌ : رافعة رؤوسها ^(١) .

ثانياً : معنى الشريعة كما وردت في القرآن الكريم :

(١) يقول الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾ (الشورى : ١٣) ، ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية : شرع لكم من الدين ، ما شرع لقوم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ ، وهو توحيد الله ، وطاعته ، والإيمان برسله ، وكتبه ، ويوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً .. ولم يرد المصالح ، التي هي مصالح الأمم ، على أحسن أحوالها ، فإنها مختلفة ، متفاوتة . قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ ﴾ (المائدة : ٤٨) . ويتابع القرطبي تفسير هذه الآية ، مسنداً ذلك إلى القاضي

(١) انظر لسان العرب المحيط ، ابن منظور ، دار العرب ، بيروت ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٩ .

أبي بكر بن العربي ، أنه قال : ثبت في الحديث الصحيح ، أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور : **«ولكن اتقوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض.....»** (١).

وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أول نبي بغير إشكال ، لأن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، إنما كان نبياً على بعض الأمور ، واقتصاراً على ضرورات المعاش ، وأخذاً بوظائف الحياة ، والبقاء ، واستقرار المدى ، إلى نوح ، فبعثه الله بتحرير الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب في الديانات .. ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول ، ويتناصر بالأنبياء ، صلوات الله عليهم ، واحداً بعد واحداً ، وشرعة إثر شرعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ، ملتناً ، على لسان أكرم الرسل ، نبينا محمد ﷺ ، فكان المعنى : أوحيناً يا محمد ، ونوحاً ، ديناً واحداً ، يعني الأصول ، التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والتقرب إلى الله بصلح الأعمال ، والزلف إليه بما يرد القلب ، والجراحة إليه ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكفر ، والقتل ، والزنا ، والأذية للخلق ، كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوانات ، كيفما دار ، واقتحام الدنئات ، وما يعود بخرم المروءات ، فهذا كله مشروع ، ديناً واحداً ، وملة متحدة ، لم تختلف على السنة الأنبياء ، وإن اختلفت أعدادهم ، وذكر قوله تعالى : **﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾** (الشورى : ١٣) ، أي اجعلوه قائماً ، يريد دائماً ، مستمراً ، محفوظاً ، مستقراً ، من غير خلاف فيه ، ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفي بذلك ، ومنهم من نكث : **﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾** (الفتح : ١٠) .. واختلفت الشرائع وراء هذه ، في معان حسبما أراده الله ، فما اقتضت المصلحة ، وأوجبت الحكمة ، وضعه في الأزمنة على الأمم (٢).

(١) القرطبي . في تفسير آية : **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾** .

(٢) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٦ ، ص ١٦٤/١٦٣ .

(ب) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨) ، فالشريعة ، من شرع الله لعباده ، من الدين ، والجمع : الشرائع .. والشرائع في الدين ، المذاهب ، التي شرعها الله لحلقه . فمعنى : ﴿ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ ، أي على منهاج واضح من أمر الدين ، يشرع بك إلى الحق . قال ابن العربي : والأمير يرد في اللغة بمعنيين ، أحدهما بمعنى الشأن ، كقوله : ﴿ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (هود : ٩٧) .. والثاني أحد أقسام الكلام ، الذي يقابله النهي ، وكلاهما يصح أن يكون مراداً هاهنا ، وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهي ملة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٣) . والاختلاف في أن الله تعالى ، لم يغير بين الشرائع في التوحيد ، والمكارم ، والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع ، حسبما علمه سبحانه ^(١) . قال ابن عباس : ﴿ على شريعة ﴾ ، أي على هدى من الأمر . وقال قتادة : الشريعة : الأمر ، والنهي ، والحدود ، والفرائض .

وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق .

وقال الكلبي : السنة ، لأنه يستند بطريقة من قبله من الأنبياء .

وقال ابن دريد : الدين ، لأنه طريق النجاة .

ج - وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ (المائدة : ٤٨) يذهب الإمام القرطبي ، إلى دلالة هذه الآية : (على عدم التعليق بشرائع الأولين) ، وإن (الشريعة ، الطريقة الظاهرة ، التي يتوصل بها إلى النجاة) .. والمنهاج :

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٦ ، ص ٢١١/٢٠٩ .

الطريق المستمر ، وهو المنهج .. والمنهج ، أي البين ، وروى ابن عباس ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ شرعةً ومنهاجاً ﴾ ، سنة ، وسبيلاً .. ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لاهلها ، والإنجيل لاهله ، والقرآن لاهله .

وهذا في الشرائع والعبادات .. والأصل ، والتوحيد ، لا اختلاف فيه . روي معنى ذلك عن قتادة . وقال مجاهد : الشرعة ، والمنهاج ، دين محمد عليه السلام ، وقد نسخ به كل ما سواه ^(١) .

الخلاصة في بيان معنى الشريعة :

والخلاصة ، أن هذه الآيات ، وما سبق في تفسيرها ، تدل على شمول معنى الشريعة ، لكل ما جاء به الدين ، من مباحث الإيمان ، وفقه أركان الإيمان ، والإسلام ، والأسرة ، ووجوب الحكم بما شرع الله ، حتى يهتدي الناس بذلك في شؤون حياتهم كلها ، في الاعتقاد ، والشعائر التعبدية ، والشرائع ، التي تنظم حياة المجتمع ، في قوانين الأخلاق ، والآداب ، والمعاملات المدنية ، والجنائية ، التي تشمل الأحكام الحدية والتعزيرية . ثم أن الله قد أغنى المسلمين ، بما شرعه في دين الإسلام ، عن متابعة ما لدى الملل الأخرى ، أو النظم الغريبة ، أو الشرقية .

وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، يعني الحكم بما أنزل الله ، وهو واجب ديناً ، قال تعالى : ﴿ وَأَن آحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْسُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة : ٤٩) .. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَنَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) .. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٦ ، ص ٢١١/٢٠٩ .

أَلَا مَنَنْتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ (النساء : ٥٨) ..
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...﴾ (النحل : ٩٠) .. ﴿فَلَا وَرَيْكَ
 لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ
 حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء : ٦٥) .

وأخيراً ، فإنه لا سبيل لتحقيق العدل ، والإحسان ، وأداء الأمانات ، إلا بتحكيم
 الشريعة ، والتسليم الكامل لذلك . ثم إنه لا خيار لمسلم ، يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، إلا في
 هذا الاحتكام لشرع الله ، وطاعة الله ، ورسوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

الحد .. في اللغة .. والاصطلاح

أولاً : معنى كلمة « حد » في اللغة :

الحد مفرد ، وجمعه حدود ، وترد كلمة الحد ، في اللغة العربية ، على عدة معان :

١ - بمعنى الفصل بين الشيئين : فلما يختلط أحدهما بالآخر ، أو فلما يتعدى أحدهما على
 الآخر .. ومنتهى كل شيء حده ، ومنه حدود الأرضين ، وحدود الحرم .

٢ - بمعنى التمييز : وحدّده : ميزه ، وحد كلُّ ، منتهاه ؛ لأنه يرده ، ويمنعه عن التماضي .

٣ - بمعنى المنع : وحد الرجل عن الأمر ، يحده حداً : منعه ، وحجسه ، تقول : حددت
 فلاناً عن الشر ، أي منعته .

٤ - بمعنى المخالفة ، والمعادة ، والمحاددة : المعادة ، والمخالفة ، والمنازعة ، وهو مفاعلة من
 الحد ؛ كان كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر .

أَلَا مَنَنْتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ (النساء : ٥٨) ..
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...﴾ (النحل : ٩٠) .. ﴿فَلَا وَرَيْكَ
 لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ
 حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء : ٦٥) .

وأخيراً ، فإنه لا سبيل لتحقيق العدل ، والإحسان ، وأداء الأمانات ، إلا بتحكيم
 الشريعة ، والتسليم الكامل لذلك . ثم إنه لا خيار لمسلم ، يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، إلا في
 هذا الاحتكام لشرع الله ، وطاعة الله ، ورسوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

الحد .. في اللغة .. والاصطلاح

أولاً : معنى كلمة « حد » في اللغة :

الحد مفرد ، وجمعه حدود ، وترد كلمة الحد ، في اللغة العربية ، على عدة معان :

١ - بمعنى الفصل بين الشيئين : فلما يختلط أحدهما بالآخر ، أو فلما يتعدى أحدهما على
 الآخر .. ومنتهى كل شيء حده ، ومنه حدود الأرضين ، وحدود الحرم .

٢ - بمعنى التمييز : وحدّده : ميزه ، وحد كلُّ ، منتهاه ؛ لأنه يرده ، ويمنعه عن التماضي .

٣ - بمعنى المنع : وحد الرجل عن الأمر ، يحده حداً : منعه ، وحجسه ، تقول : حددت
 فلاناً عن الشر ، أي منعته .

٤ - بمعنى المخالفة ، والمعادة ، والمحاددة : المعادة ، والمخالفة ، والمنازعة ، وهو مفاعلة من
 الحد ؛ كان كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر .

٥ - بمعنى الحلال ، والحرام :

وحدود الله تعالى ، التي بينَ تحريمها ، وتحليلها ، وأمر ألا يُتعدى شيء منها ، فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها ، أو ينهي عنه منها ، ومنع من مخالفتها ، قال الأزهري : فحدود الله عز وجل ضربان :

ضرب منها : حدود حدها للناس ، في مطاعمهم ، ومشاربهم ، ومناكحهم ، وغيرها ، مما أحل وحرم ، وأمر بالانتهاء عما نهى عنه منها ، ونهى عن تعديها .
والضرب الثاني : عقوبات ، بأن جعلت لمن ارتكب ما نهى الله عنه ، كحد السرقة ، وكحد القاذف ، لأنها تحد ، أي تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها .
وسميت الأولى حدوداً ، لأنها نهايات ، نهى الله عن تعديها .

قال ابن الأثير : فكان حدود الشرع ، فصلت بين الحلال ، والحرام ، فمنها ما لا يقرب ، كالقواحش المحرمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ ﴾ (البقرة : ١٨٧) ، ومنها ما لا يتعدى ، كالموارث المعينة ، وتزوج الأربع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ ﴾ (البقرة : ٢٢٩)

ومنها الحديث - في قول ماعز - : إني أصبت حداً فأقمه علي ؛ أي أصبت ذنباً ، أوجب عليّ حداً ؛ أي عقوبة ^(١) .

وفي حديث أبي العالية ، أن اللمم - الوارد في الآية : ﴿ إِلَّا اللَّمَمُ ۚ ﴾ (النجم : ٣٢) - ما بين الحدين ؛ حد الدنيا ، وحد الآخرة ؛ يريد بحد الدنيا : ما تجب فيه الحدود المكتوبة ؛ كالسرقة ، والزنا ، والقذف . ويريد بحد الآخرة : ما توعد الله تعالى عليه العذاب ؛ كالقتل ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا .. فأراد أن اللمم من الذنوب ، ما كان بين هذين ، فيما لم يوجب عليه حداً في الدنيا ، ولا تعدياً في الآخرة .

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم .

ثانياً : معنى الحد في الاصطلاح :

الحد ، عقوبة مقدرة لأجل حق الله ، فيخرج التعزير ؛ لعدم تقديره ، أو القصاص ؛ لأنه حق آدمي ^(١) .

وسميت عقوبات المعاصي ، حدوداً ، لأنها تمنع العاصي ، من العود إلى تلك المعصية ، التي حُدَّ لأجلها ، في الغالب ^(٢) .

قال ابن حجر العسقلاني : وقد حصر بعض العلماء ، ما قيل بوجوب الحد به ، في سبعة عشر شيئاً ؛ فمن المتفق عليه : الردة ، والحاربة - ولم يتب قبل القدرة عليه - ، والزنا ، والقذف ، وشرب الخمر - سواء أسكر أم لا - والسرقة ^(٣) .

وقد ذهب ابن رشد ، إلى إطلاق كلمة الحد ، على كل العقوبات المقدرة ، في الكتاب والسنة ، حيث يقول : (الجنائيات ، التي لها حدود مشروعة ؛ جنائيات على الأبدان ، والنفوس ، والأعضاء ، وهي المسامة ، قتل ، وجرم ... وجنائيات على الزوج ، وهي المسامة ، زنا ، وسفاحاً ، وجنائيات على الأموال ...) ^(٤) .

هذا ، ويتبين مما سبق ، أن الحدود كانت تطلق بتوسع ، حتى بلغ بعض الفقهاء ، بمعناها الاصطلاحي ، ما أشار إليه ابن حجر العسقلاني ، في قوله المتقدم .. أما جمهور الفقهاء ، فقد اتفقوا على الحدود الخمسة التالية : السرقة ، والحاربة ، والزنا ، والقذف ، والخمر ، واختلفوا فيما سواها .

(١) لسان العرب . مادة حد .

(٢) الشوكاني ، نيل الأوطار .

(٣) فتح الباري ، ١/ ٥٩ .

(٤) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ٢/ ٣٦١ .

العقوبات الحديدية :

وهي سبع عقوبات :

١ - الجلد ، ودليله :

(أ) قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

(النور : ٢) .

(ب) وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ

تَمْنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور : ٤) .

(ج) لما صح في السنة ، من جلد شارب الخمر ، وهكذا فعل الخلفاء الراشدون .

٢ - القطع :

ودليله ، قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً

بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٨) .

٣ - القتل .

٤ - الصلب .

٥ - القطع من خلاف .

٦ - النفي .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَن اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿المائدة : ٣٣-٣٤﴾ .

٧ - الرجم ، وقد ثبت بالسنة النبوية الصحيحة .

أثر إقامة الحدود في إصلاح المجتمع

(أ) عقدياً : سلامة الاعتقاد ، واتساق المسلم مع نفسه ، بتحكيم الشريعة ، وحفظ

الدين ، وصيانته في وجه المرتدين ، الخارجين عليه ، المخادين لله ، ورسوله .

(ب) أخلاقياً : الاستقامة ، والعفاف ، والطهر ، وحسن المظهر العام ، وتعليم الأمة

أفراداً ، وجماعات ، وتربيتها على حب الفضيلة ، وكرهية الرذيلة ، وبغض أهلها ، وشهود

ما يجري عليهم ، من إقامة الحد : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور : ٢) ،

مقارنة بما في العالم الغربي ، من جرائم متكاثرة ، ربما رأوها معيار حضارة ، وتقدم ، قياساً

على مقدار ما يستهلكونه ، من طاقة كهربائية .

يضاف إلى ذلك : استقرار الأسر ، وحمايتها من التشرد ، وحفظ الأعراض ، وصيانة

الأنساب ، وطهارة المجتمع ، وسد أبواب الفساد ، والفحش ، والبذاءة ، والتبذير ، وإفساد

العقول ، ورعاية مصلحة المجتمع في ذلك كله ، وإن وقع الضرر في ذلك على أفراد معينين .

(ج) اقتصادياً : حفظ المال ، وتنميته ، وحماية الملكية ، وإعلاء العمل ، وحسن

استثمار الوقت .

وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لِمَهْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿المائدة : ٣٣-٣٤﴾ .

٧ - الرجم ، وقد ثبت بالسنة النبوية الصحيحة .

أثر إقامة الحدود في إصلاح المجتمع

(أ) عقدياً : سلامة الاعتقاد ، واتساق المسلم مع نفسه ، بتحكيم الشريعة ، وحفظ

الدين ، وصيانته في وجه المرتدين ، الخارجين عليه ، المخادين لله ، ورسوله .

(ب) أخلاقياً : الاستقامة ، والعفاف ، والطهر ، وحسن المظهر العام ، وتعليم الأمة

أفراداً ، وجماعات ، وتربيتها على حب الفضيلة ، وكرهية الرذيلة ، وبغض أهلها ، وشهود

ما يجري عليهم ، من إقامة الحد : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور : ٢) ،

مقارنة بما في العالم الغربي ، من جرائم متكاثرة ، ربما رأوها معيار حضارة ، وتقدم ، قياساً

على مقدار ما يستهلكونه ، من طاقة كهربائية .

يضاف إلى ذلك : استقرار الأسر ، وحمايتها من التشرد ، وحفظ الأعراض ، وصيانة

الأنساب ، وطهارة المجتمع ، وسد أبواب الفساد ، والفحش ، والبذاءة ، والتبذير ، وإفساد

العقول ، ورعاية مصلحة المجتمع في ذلك كله ، وإن وقع الضرر في ذلك على أفراد معينين .

(ج) اقتصادياً : حفظ المال ، وتنميته ، وحماية الملكية ، وإعلاء العمل ، وحسن

استثمار الوقت .

(د) أمنياً : الأمن على النفس ، والعرض ، وفي الممتلكات ، لان السرقة عدوان على الملكية ، والحرز ، وما يتحقق من أمن اجتماعي ، بإقامة الشريعة .

(هـ) التجاوب الشعبي : لان الشعب ، يدرك بفطرته ، انه تتجلى آية كمال الإيمان ، ومنتهى الصدق ، في توجه الدولة إلى الله ، بإقامة الحاكم لشرع الله ، مع العناية بتنفيذ الحدود ، لان في ذلك مباينة تامة ، ومفارقة كاملة ، للقوانين الوضعية .. وفي سبيل ذلك ، يسايح الحاكم ، إماماً للمسلمين ، وتبذل له الطاعة الخالصة ، ويجاهد وراءه ، ويتحمل الشعب المعاناة في المعاش ، والحصار الاقتصادي .

(و) بركة الحياة : حيث تنزل البركة على المجتمع ، فينعم الفرد ، والجماعة ، بفضل الاستجابة لأمر الله تعالى ، الاستقامة على شرع الله ، بنزول الغيث ، ونماء الزرع ، وكثرة القوت ، والأمن من فتنة الجذب ، والجوع ، واختلال الأمن ، وانتشار الخوف ، والرعب ، يقول تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ ﴾ (قريش : ٣ - ٤) : وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (الاعراف : ٩٦) .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ إِذَا نَكَحْتُمُ أَبْنَاءَكُمْ ۚ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ إِذَا نَكَحْتُمُ أَبْنَاءَكُمْ ۚ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ إِذَا نَكَحْتُمُ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ﴾ (الجن : ١٦) .

أثر تطبيق حد الزنا في إصلاح المجتمع

الردع الحاسم ، بعقوبة تكافئ جرمه مقبلة ، حمل عليها سعار الشهوة البهيمية ، دون مراعاة لكرامة الإنسان ، المميز على غيره ، أو احترام لنظام الشريعة ، الذي وثق العلاقات الزوجية ، وصانها ، فسن الرضا ، والإيجاب ، والقبول ، والإشهاد ، والإشهار ، حتى امتن الله على عباده بهذه النعمة ، وجعلها من علامات قدرته : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

(د) أمنياً : الأمن على النفس ، والعرض ، وفي الممتلكات ، لان السرقة عدوان على الملكية ، والحرز ، وما يتحقق من أمن اجتماعي ، بإقامة الشريعة .

(هـ) التجاوب الشعبي : لان الشعب ، يدرك بفطرته ، انه تتجلى آية كمال الإيمان ، ومنتهى الصدق ، في توجه الدولة إلى الله ، بإقامة الحاكم لشرع الله ، مع العناية بتنفيذ الحدود ، لان في ذلك مباينة تامة ، ومفارقة كاملة ، للقوانين الوضعية .. وفي سبيل ذلك ، يسايح الحاكم ، إماماً للمسلمين ، وتبذل له الطاعة الخالصة ، ويجاهد وراءه ، ويتحمل الشعب المعاناة في المعاش ، والحصار الاقتصادي .

(و) بركة الحياة : حيث تنزل البركة على المجتمع ، فينعم الفرد ، والجماعة ، بفضل الاستجابة لأمر الله تعالى ، الاستقامة على شرع الله ، بنزول الغيث ، ونماء الزرع ، وكثرة القوت ، والأمن من فتنه الجذب ، والجوع ، واختلال الأمن ، وانتشار الخوف ، والرعب ، يقول تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ ﴾ (قريش : ٣ - ٤) : وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (الاعراف : ٩٦) .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ إِذَا عَصَيْتُمْ وَإِنْ تَتُوبْنَ فَإِنَّهُنَّ مَتَّعَتُكُم بِغُلَامِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ إِذَا عَصَيْتُمْ وَإِنْ تَتُوبْنَ فَإِنَّهُنَّ مَتَّعَتُكُم بِغُلَامِكُمْ ۚ ﴾ (الجن : ١٦) .

أثر تطبيق حد الزنا في إصلاح المجتمع

الردع الحاسم ، بعقوبة تكافئ جريمة مقبنة ، حمل عليها سعار الشهوة البهيمية ، دون مراعاة لكرامة الإنسان ، المميز على غيره ، أو احترام لنظام الشريعة ، الذي وثق العلاقات الزوجية ، وصانها ، فسن الرضا ، والإيجاب ، والقبول ، والإشهاد ، والإشهار ، حتى امتن الله على عباده بهذه النعمة ، وجعلها من علامات قدرته : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (الروم : ٢١) .

ولذلك كانت عقوبة المجاهرة بهذه الفاحشة ، حتى شهد عليها ، بصورتها المغلظة ، أربعة شهود عدول ، أو جاء الزاني مقراً على نفسه بالزنا ، وجاء بكامل قواه العقلية ، وطوعه ، واختياره ، مريداً تطهير نفسه ، بإقامة الحد عليه .. وكانت حكمة الشريعة عظيمة في سن هذه العقوبة الرادعة للجاني ، حتى لا يعاودها ، والزاجرة لغيره ، عن الاقتراب من هذه الفاحشة .. وتحقيقاً للزجر المراد ، كان حد الزاني المحسن ، كما أمر الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور : ٢) .

ولان هذه الجريمة ، تنشأ عادة من سعار الشهوة ، وما يصاحبها من إغواء ، وإغراء ، بحيث لا يكف عن الاقتراب منها ، صاحبها ، ما لم يخوف ، ويواجه بعقوبة مشددة ، مع اقتضاح أمره ، وشهود الناس ، والجمتمع عليه ، يقام عليه الحد .. وتنفيذ هذا الحد ، تحفظ الأعراض ، وتصان الانساب ، وتؤدى الحقوق ، ويسلم المجتمع .

أثر تنفيذ حد القذف في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - كف السفهاء من تدنيس المجتمع ، ورمي الاطهار ، واتهامهم بالفواحش ، وتخويفهم من عاقبة ذلك ، حتى هددهم الله تعالى بالعقوبة الدنيوية ، والاخرية .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (النور : ١٩) .. ثم فصلت الآية الكريمة ، وهي الرابعة من سورة النور ،

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (الروم : ٢١) .

ولذلك كانت عقوبة المجاهرة بهذه الفاحشة ، حتى شهد عليها ، بصورتها المغلظة ، أربعة شهود عدول ، أو جاء الزاني مقراً على نفسه بالزنا ، وجاء بكامل قواه العقلية ، وطوعه ، واختياره ، مريداً تطهير نفسه ، بإقامة الحد عليه .. وكانت حكمة الشريعة عظيمة في سن هذه العقوبة الرادعة للجاني ، حتى لا يعاودها ، والزاجرة لغيره ، عن الاقتراب من هذه الفاحشة .. وتحقيقاً للزجر المراد ، كان حد الزاني المحسن ، كما أمر الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور : ٢) .

ولأن هذه الجريمة ، تنشأ عادة من سعار الشهوة ، وما يصاحبها من إغواء ، وإغراء ، بحيث لا يكف عن الاقتراب منها ، صاحبها ، ما لم يخوف ، ويواجه بعقوبة مشددة ، مع اقتضاح أمره ، وشهود الناس ، والمجتمع عليه ، يقام عليه الحد .. وتنفيذ هذا الحد ، تحفظ الأعراض ، وتصان الانساب ، وتؤدى الحقوق ، ويسلم المجتمع .

أثر تنفيذ حد القذف في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - كف السفهاء من تدنيس المجتمع ، ورمي الاطهار ، واتهامهم بالفواحش ، وتخويفهم من عاقبة ذلك ، حتى هددهم الله تعالى بالعقوبة الدنيوية ، والآخرية .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (النور : ١٩) .. ثم فصلت الآية الكريمة ، وهي الرابعة من سورة النور ،

العقوبة الحدية للزحف ، من الجلد ، وإسقاط الشهادة ، والانصاف بالفسق : ﴿ وَالَّذِينَ
يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً
أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور : ٤) .

٢ - حماية المجتمع من انتشار الفاحشة ، وخدش حياء المحصنات ، العفيفات ،
الطاهرات .

٣ - حماية الاعراض ، وشرف الاسر الكريمة ، من المرجفين ، والمستهزئين .

٤ - زجر الفساق ، من الطعن في الانساب الكريمة ، التي هي أساس التواصل ،
والتعارف : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. ولقد وصف
الله ﷻ من يسب إخوانه ، بالفسق ، حيث قال : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر»^(١) ،
بل وصف عليه الصلاة والسلام ، المسلم الحق بأنه : « من سلم المسلمون من لسانه
ويده»^(٢) .

أثر تنفيذ حد الخمر في إصلاح المجتمع

من ذلك :

- ١ - حماية العقول ، وعدم تعطيلها .
- ٢ - حفظ الكيان الاسري ، من التفكك ، والانهيار ، وضياح الاولاد .

(١) رواء البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، انظر
فتح الباري ، ج ١٢ ، ص ٢٦ .

(٢) رواء البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ، ويده انظر فتح الباري ، ج ١ ،
ص ٥٣ .

العقوبة الحدية للزحف ، من الجلد ، وإسقاط الشهادة ، والانصاف بالفسق : ﴿ وَالَّذِينَ
يَرْفَعُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَزِمُنَّ أَرْبَعَهُنَّ مُهْدَوَاتٍ فَأَجِلَدُنَّ الْفَاحِشَةَ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً
أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور : ٤) .

٢ - حماية المجتمع من انتشار الفاحشة ، وخدش حياء المحصنات ، العفيفات ،
الطاهرات .

٣ - حماية الاعراض ، وشرف الاسر الكريمة ، من المرجفين ، والمستهزئين .

٤ - زجر الفساق ، من الطعن في الانساب الكريمة ، التي هي أساس التواصل ،
والتعارف : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. ولقد وصف
الله ﷻ من يسب إخوانه ، بالفسق ، حيث قال : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر»^(١) ،
بل وصف عليه الصلاة والسلام ، المسلم الحق بأنه : « من سلم المسلمون من لسانه
ويده»^(٢) .

أثر تنفيذ حد الخمر في إصلاح المجتمع

من ذلك :

- ١ - حماية العقول ، وعدم تعطيلها .
- ٢ - حفظ الكيان الاسري ، من التفكك ، والانهيار ، وضياح الاولاد .

(١) رواء البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، انظر
فتح الباري ، ج ١٢ ، ص ٢٦ .

(٢) رواء البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ، ويده انظر فتح الباري ، ج ١ ،
ص ٥٣ .

- ٣ - حفظ المال ، من إضاعته في شراء الخمر ، ومن تبديده ، وصرفه في غير وجه حق ، بسبب غياب العقل .
- ٤ - حفظ الأمانات ، وعدم إفشاء الأسرار ، واستخدام الأعداء للمخمورين ، في معرفة بعض الخبايا ، والأسرار .
- ٥ - الكف عن جرائم عديدة ، تقود إليها الخمر ، فهي حقاً أم الخبائث .
- ٦ - الحفاظ على الصحة النفسية ، والجسمية ، للأفراد ، والجماعات .
- ٧ - عدم تبديد الوقت ، وتضييعه .
- ٨ - مضاعفة الانتاج ، بتوظيف الطاقات العاملة في المجتمع .

أثر حد السرقة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

- ١ - كف السارقين ، وردعهم بعقوبة غليظة ، وزجر من تسول له نفسه ، أن يسرق ، بقطع يده ، وافتضاح أمره ، وهوانه على الناس .
- ٢ - التنفير من أكل أموال الناس بالباطل ، على وجه السرقة ، بعقوبة حاسمة ، وراذعة ، وزاجرة ، لتكون صورة السارق المحدود ، باعثة على كراهية جريمة السرقة .
- ٣ - حفظ الملكية الخاصة ، وأموال الناس ، وقد اجتهدوا في جمع المال ، وتنميته لمصلحة المجتمع .
- ٤ - إعلاء قيمة العمل ، والإنتاج ، والكسب الحلال ، ليكون وسيلة للتملك ، والاقتناء ، من أداء حق الله فيه ، نحو المجتمع ، على وجه الوجوب ، بالزكاة ، والكفارات ، أو على وجه الإحسان ، صدقة ، وبراً ، وصلة .
- ٥ - تحقيق الأمن ، والاطمئنان النفسي للفرد ، وللمجتمع .

- ٣ - حفظ المال ، من إضاعته في شراء الخمر ، ومن تبديده ، وصرفه في غير وجه حق ، بسبب غياب العقل .
- ٤ - حفظ الأمانات ، وعدم إفشاء الأسرار ، واستخدام الأعداء للمخمورين ، في معرفة بعض الخبايا ، والأسرار .
- ٥ - الكف عن جرائم عديدة ، تقود إليها الخمر ، فهي حقاً أم الخبائث .
- ٦ - الحفاظ على الصحة النفسية ، والجسمية ، للأفراد ، والجماعات .
- ٧ - عدم تبديد الوقت ، وتضييعه .
- ٨ - مضاعفة الانتاج ، بتوظيف الطاقات العاملة في المجتمع .

أثر حد السرقة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

- ١ - كف السارقين ، وردعهم بعقوبة غليظة ، وزجر من تسول له نفسه ، أن يسرق ، بقطع يده ، وافتضاح أمره ، وهوانه على الناس .
- ٢ - التنفير من أكل أموال الناس بالباطل ، على وجه السرقة ، بعقوبة حاسمة ، وراذعة ، وزاجرة ، لتكون صورة السارق المحدود ، باعثة على كراهية جريمة السرقة .
- ٣ - حفظ الملكية الخاصة ، وأموال الناس ، وقد اجتهدوا في جمع المال ، وتنميته لمصلحة المجتمع .
- ٤ - إعلاء قيمة العمل ، والإنتاج ، والكسب الحلال ، ليكون وسيلة للتملك ، والاقتناء ، من أداء حق الله فيه ، نحو المجتمع ، على وجه الوجوب ، بالزكاة ، والكفارات ، أو على وجه الإحسان ، صدقة ، وبراً ، وصلة .
- ٥ - تحقيق الأمن ، والاطمئنان النفسي للفرد ، وللمجتمع .

٦ - الرحمة بالناس ، بإقامة حد السرقة ، رعاية للحكمة المرادة ، من ذلك ، كما قال

تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً يُمَاسِكَبَانِ كَلًّا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨ ﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾ (المائدة : ٣٨-٣٩) ، وذلك لأن في كف الناس

عن السرقة ، وزجرهم ، عنها رحمة بهم ، من تكفير عن السارق ، وزجر للغير . . فالحدود زواجر وجوابر معاً ، ومن رحمة الله بالمجتمع ، في صيانة المال ، الذي هو قوام الحياة ، وحماية الملكية الخاصة ، وإعلاء قيمة العمل ، ، والاعتماد على النفس في الكسب ، والإنتاج .

وفيما تقدم ، تحقيق لمعاني الرحمة ، ولئن كانت فاصلة الآية السابقة ، ببيان حد السرقة ، تصفه سبحانه ، بالعزة ، والحكمة ، فإن التالية لها تختتم بالغفران ، والرحمة ، فسبحان الله تعالى المشرع ، الحكيم ، العادل ، الموصوف بالرافة ، والرحمة ، وهو تعالى القائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج : ٦٥) ، وصلوات الله المباركات ، وتسليماته الزاكيات ، على رسوله الأمين ، الذي أقام الشريعة ، ونفذ الحدود ، والذي وصفه ربه بالرافة ، والرحمة ، وأنزل عليه في هذا الشأن ، في أواخر ما نزل من القرآن : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) .

أثر تنفيذ حد الحراية في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - حفظ المال ، من أن يعتدى عليه بالقوة ، والغلبة ، فتتعطل مصالح الأفراد ، والجماعات ، وللوقاية من أن يستخدم المعتدون القوة ، في أخذ أموال الناس ، فكانت العقوبة مشددة ، أكثر من عقوبة السرقة العادية .

٦ - الرحمة بالناس ، بإقامة حد السرقة ، رعاية للحكمة المرادة ، من ذلك ، كما قال

تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً يُمَاسِكَبَانِ كَلًّا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨ ﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾ (المائدة : ٣٨-٣٩) ، وذلك لأن في كف الناس

عن السرقة ، وزجرهم ، عنها رحمة بهم ، من تكفير عن السارق ، وزجر للغير . . فالحدود زواجر وجوابر معاً ، ومن رحمة الله بالمجتمع ، في صيانة المال ، الذي هو قوام الحياة ، وحماية الملكية الخاصة ، وإعلاء قيمة العمل ، ، والاعتماد على النفس في الكسب ، والإنتاج .

وفيما تقدم ، تحقيق لمعاني الرحمة ، ولئن كانت فاصلة الآية السابقة ، ببيان حد السرقة ، تصفه سبحانه ، بالعزة ، والحكمة ، فإن التالية لها تختتم بالغفران ، والرحمة ، فسبحان الله تعالى المشرع ، الحكيم ، العادل ، الموصوف بالرافة ، والرحمة ، وهو تعالى القائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج : ٦٥) ، وصلوات الله المباركات ، وتسليماته الزاكيات ، على رسوله الأمين ، الذي أقام الشريعة ، ونفذ الحدود ، والذي وصفه ربه بالرافة ، والرحمة ، وأنزل عليه في هذا الشأن ، في أواخر ما نزل من القرآن : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) .

أثر تنفيذ حد الحراية في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - حفظ المال ، من أن يعتدى عليه بالقوة ، والغلبة ، فتتعطل مصالح الأفراد ، والجماعات ، وللوقاية من أن يستخدم المعتدون القوة ، في أخذ أموال الناس ، فكانت العقوبة مشددة ، أكثر من عقوبة السرقة العادية .

٢ - حفظ الأعراض ، من الانتهاك ، باستخدام القوة ، أو الإكراه على الفاحشة ، يقول القرطبي : (إذا أراد إخافة الطريق ، بإظهار السلاح ، قصداً ، للغلبة على الفروج ، فهذا أفحش ، وأقبح ، من اخذ المال)^(١) ، ولذلك كانت شدة العقوبة بالقتل ، دون تفرقة بين كون الزاني محصناً ، أو غير محصن .

٣ - حفظ الأنفس ، والآمنين ، من إرهاب المحاربين ، المحادين لله ورسوله ، فلا عفو من أحد ، ولو كان ولي الدم ، أو الإمام ، بل تتحتم العقوبة على المحاربين .

٤ - تأمين الطريق ، والمجتمع ، ونشر الطمأنينة فيه ، والاستقرار ، وكف شر المحاربين ، المعتدين على سلامة الأرواح ، والدماء ، والأعراض ، والأموال .

٥ - استقرار الدولة ، والمجتمع ، وإخلاص الولاء لولاة الأمور ، من الحكام المسلمين .

٦ - حرية الحركة ، والتنقل ، وما يؤدي إليه ذلك من نهضة اقتصادية .

أثر إقامة القصاص في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - كف المعتدين ، من الجناية على الأنفس ، والأرواح ، والجوارح ، والأعضاء ، وحماية المجتمع من الاعتداء ، بفضه على بعض ، ومن التقاتل ثاراً ، بعقوبة رادعة ، وزاجرة ، ومماثلة لما فعله الجاني بأخيه .. يقول تعالى في وجوب إقامة القصاص : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٦ ، ١٥٦/٦٠

٢ - حفظ الأعراض ، من الانتهاك ، باستخدام القوة ، أو الإكراه على الفاحشة ، يقول القرطبي : (إذا أراد إخافة الطريق ، بإظهار السلاح ، قصداً ، للغلبة على الفروج ، فهذا أفحش ، وأقبح ، من اخذ المال)^(١) ، ولذلك كانت شدة العقوبة بالقتل ، دون تفرقة بين كون الزاني محصناً ، أو غير محصن .

٣ - حفظ الأنفس ، والآمنين ، من إرهاب المحاربين ، المحادين لله ورسوله ، فلا عفو من أحد ، ولو كان ولي الدم ، أو الإمام ، بل تتحتم العقوبة على المحاربين .

٤ - تأمين الطريق ، والمجتمع ، ونشر الطمأنينة فيه ، والاستقرار ، وكف شر المحاربين ، المعتدين على سلامة الأرواح ، والدماء ، والأعراض ، والأموال .

٥ - استقرار الدولة ، والمجتمع ، وإخلاص الولاء لولاة الأمور ، من الحكام المسلمين .

٦ - حرية الحركة ، والتنقل ، وما يؤدي إليه ذلك من نهضة اقتصادية .

أثر إقامة القصاص في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - كف المعتدين ، من الجناية على الأنفس ، والأرواح ، والجوارح ، والأعضاء ، وحماية المجتمع من الاعتداء ، بعضه على بعض ، ومن التقاتل ثاراً ، بعقوبة رادعة ، وزاجرة ، ومماثلة لما فعله الجاني بأخيه .. يقول تعالى في وجوب إقامة القصاص : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٦ ، ١٥٦/٦٠

بِالْأُذُنِ وَالسِّنِّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ ﴿ (المائدة : ٤٥) ، ويقول تعالى :
﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ،
ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (النحل : ١٢٦)
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

٢ - تأمين المجتمع ، من انتشار الجرائم ، والعدوان ، بعضه على بعض ، وتماسك المجتمع ، واستقراره ، بالقصاص ، أو بالعفو عنه ، ممن جعلت لهم الشريعة هذا الحق .. وفي إثبات حق أولياء الدم في العفو ، ما يحقق رعاية هذا الأمر ، ويحقق التسامح مع من وقع في الخطيئة ، من غير أن يكون من معتادي الجرائم ، مع مراعاة حق الإمام الحاكم ، في أن يوقع بالجاني ، عقوبة تعزيرية مناسبة .

التوبة وأثرها في رفع الحدود أو العقوبة

أولاً : سقوط عقوبة المرتد بالتوبة :

وهو رأي جمهور الفقهاء : أنه يجب أن يستتاب المرتد ، فإن تاب ، عفي عنه وأخلي سبيله . (١)

ثانياً : سقوط عقوبة المحاربة بالتوبة :

إذا تاب المحارب ، قبل المقدرة عليه ، فإن العقوبة المقررة المنصوص عليها ، تسقط ..
يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ابن رشد ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

بِالْأُذُنِ وَالسِّنِّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ ﴿ (المائدة : ٤٥) ، ويقول تعالى :
﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ،
ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (النحل : ١٢٦)
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

٢ - تأمين المجتمع ، من انتشار الجرائم ، والعدوان ، بعضه على بعض ، وتماسك المجتمع ، واستقراره ، بالقصاص ، أو بالعفو عنه ، ممن جعلت لهم الشريعة هذا الحق .. وفي إثبات حق أولياء الدم في العفو ، ما يحقق رعاية هذا الأمر ، ويحقق التسامح مع من وقع في الخطيئة ، من غير أن يكون من معتادي الجرائم ، مع مراعاة حق الإمام الحاكم ، في أن يوقع بالجاني ، عقوبة تعزيرية مناسبة .

التوبة وأثرها في رفع الحدود أو العقوبة

أولاً : سقوط عقوبة المرتد بالتوبة :

وهو رأي جمهور الفقهاء : أنه يجب أن يستتاب المرتد ، فإن تاب ، عفي عنه وأخلي سبيله . (١)

ثانياً : سقوط عقوبة المحاربة بالتوبة :

إذا تاب المحارب ، قبل المقدرة عليه ، فإن العقوبة المقررة المنصوص عليها ، تسقط ..
يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ابن رشد ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ (المائدة: ٣٣-٣٤) .

ثالثاً: سقوط عقوبة الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، بالتوبة:

وهو رأي الحنابلة، وبعض الفقهاء، أن التوبة إذا حدثت قبل وصوله إلى الإمام، فإنها تُسقط عنه الحد، ومستدلّين بأن الآيات الموجبة للعقوبة، المنصوص عليها، تلتها آيات التوبة، والمغفرة، والرحمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمْ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٦)، وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٩) .

كما جاءت التوبة، بعد عقوبة الشرك، والقتل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿٣٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٣٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٠﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠) .

ويستدلون، بأن إقامة النبي ﷺ الحد على من جاء تائباً، أن ذلك خاص بهم، بأنهم طلبوا تطهيراً لأنفسهم (١) .

والتوبة النصوح، باب عظيم في الأمل في رحمة الله، وفضله، ونيل محبته تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) .. وقد ندب الله تعالى إلى التوبة النصوح،

(١) انظر ابن قدامة: المغني، ٢٩٦/٨، وابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين، ٩٧/١ .

فقال تعالى : ﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا تُوبُوْا اِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا عَسٰى رَبُّكُمْ اَنْ يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمۡ جَنَّاتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزٰى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعٰى بَيْنَ اَيْدِيْهِمْ وَاَيْمَنِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اٰتِنَا لَنَا نُورًا وَاَغْفِرْ لَنَا اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿ (التحریم : ٨) .

وعندما يحقق المؤمن التوبة ، فإنه يحقق لنفسه الاستقرار النفسي ، ويتخلص من العقد النفسية ، التي تؤثره ، إلى جانب تكفير السيئات ، وسقوط العقوبات ، المترتبة على اقتراف تلك المخالفات .

رابعاً : سقوط حد القذف بالتوبة :

وفي أثر توبة القاذف ، في سقوط الحد عنه ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ يَزْمُوْنَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَازِمُوا بِاَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاَجْلِدُوْهُمۡ ثَمٰنِيْنَ جَلْدَةً وَّلَا تَقْبَلُوْا لَهُمْ شَهَادَةً اَبَدًا وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ ﴿٤﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْۢ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٥﴾ (النور : ٤-٥) .

خصائص الشريعة الإسلامية

ومن أبرز خصائص الشريعة الإسلامية :

١ - تحقيق العدالة ، مع الإحسان في الحكم ، والمساواة بين الناس كافة : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوْا اَلْاَمْنَٰتَ اِلَىٰ اَهْلِهَا وَاِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ اَنْ تَحْكُمُوْا بِالْعَدْلِ ﴿ (النساء : ٥٨) ، ومن ذلك ، النهي عن الشفاعة في الحدود ، بعد بلوغها الإمام ، وفيه حديث أسامة المشهور : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ ! »^(١) ،

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود : كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان .

فقال تعالى : ﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا تُوبُوْا اِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا عَسٰى رَبُّكُمْ اَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزٰى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعٰى بَيْنَ اَيْدِيْهِمْ وَاَيْمَنُهُمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اٰتِنَا لَنَا نُورًا وَاغْفِرْ لَنَا اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ۝﴾ (التحریم : ٨) .

وعندما يحقق المؤمن التوبة ، فإنه يحقق لنفسه الاستقرار النفسي ، ويتخلص من العقد النفسية ، التي تؤثره ، إلى جانب تكفير السيئات ، وسقوط العقوبات ، المترتبة على اقتراف تلك المخالفات .

رابعاً : سقوط حد القذف بالتوبة :

وفي أثر توبة القاذف ، في سقوط الحد عنه ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ يَزْمُوْنَ الْمُحْصَنٰتِ ثُمَّ لَمَّا تَوَارَآتِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَآءَ فَاَجْلَدُوْهُنَّ مِائَتِيْنَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوْا لَهُنَّ شَهَادَةً اَبَدًا وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ ۝٤١﴾ إِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْۢ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿ (النور : ٤-٥) .

خصائص الشريعة الإسلامية

ومن أبرز خصائص الشريعة الإسلامية :

١ - تحقيق العدالة ، مع الإحسان في الحكم ، والمساواة بين الناس كافة : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوْا اَلْاَمْنَٰتِ اِلَىٰ اَهْلِهَا وَاِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ اَنْ تَحْكُمُوْا بِالْعَدْلِ ۝﴾ (النساء : ٥٨) ، ومن ذلك ، النهي عن الشفاعة في الحدود ، بعد بلوغها الإمام ، وفيه حديث أسامة المشهور : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ »^(١) ،

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود : كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان .

٢ - إقامة الرقيب الداخلي : النزكية الإيمانية ، على الطاعة ، والاستقامة ، كآداب الاستئذان ، وغض البصر ، والحلوة ، والبعد عن الفواحش ، وما يؤدي إليها ، وبغضها ، لأنها ليست من أخلاق المؤمنين ، مع ما ورد من الزجر عنها ، ووصف مقترفيها بالفسق ، وتخويفهم بالحزني ، والتكال في الدنيا ، وعذاب الآخرة ؛ الأمر الذي يجمع بين الديانة ، والقضاء ، وفي حديث صحيح « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ^(١) .

٣ - رعاية مصلحة المجتمع ، وسد باب الفساد ، وإن أوقع ذلك بعض الضرر ، على أفراد معينين .

٤ - إحياء الرقيب الاجتماعي : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والرقابة الاجتماعية على المجتمع ، بأداء واجب الحسبة ، لإحداث الرقي الأخلاقي ، في المجتمع .

٥ - تيسير أبواب الحلال ، والطيبات ، مع الحض عليه ، فيما يغلق أبواباً من الشر ، والمنكرات .

٦ - الطبيعة الحاسمة لأحكام الشريعة ، في مقابل القوانين الأوربية الوضعية ، التي تبلغ في العقوبات (الحبس والسجون) ، وقد صار أثرها السيء واضحاً في تعليم الإجرام ، وإفساد السجناء ، بما يقترب في السجون ، من منكرات ، مع ما يؤدي إليه الحبس من كراهية المجتمع ، وتعميق روح الانتقام ، وضياغ أسر السجناء .. زيادة على ذلك ، فإن هذه السجون ، عبء على الأمة ، في إيواء المجرمين ، وإعاشتهم .

٧ - كون هذه العقوبات ، المقدره في الشريعة : ﴿ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٨) ، أي عبرة للآخرين ، عن مصير المجرم المحدود ، ليتجنبوا فعل ما أوجب تلك العقوبة ، ممن شهدوا إقامة الحد عليه ، أو رأوا أثره .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان . باب بيان نقصان الإيمان بالعاصي .

٨ - استقلال المسلمين ، وتميزهم في الامم ، والحضارات المعاصرة ، خاصة بهذه التشريعات ، ولذلك فإن الغرب شديد العداء ، والمقاومة لهذه التشريعات الإسلامية عامة ، والحدية منها خاصة ، لأنها تخص المسلمين ، وتميزهم عن غيرهم ، وتقطع أمل الأعداء في رد المسلمين عن دينهم : ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ (المائدة : ٣) .

ومهما يكن من نفور الغرب ، من بعض أحكام الشريعة ، ووصفها بالقسوة ، فإنه لاجئ إليها اضطراباً ، كما رجعت أمريكا مضطرة لإعادة عقوبة الإعدام . ومع ان الغرب لا يزال يستخدم اسم الإنسانية ، وحقوق الإنسان ، في تشويشه على التشريعات الإسلامية ، حتى على عقوبة الجلد ، فإن قانون العقوبات الإنجليزي ، قد تضمن في مواده ، عقوبة الجلد ، وظل هذه القانون معمولاً به في بعض البلاد الإسلامية ، مثل السودان ، إلى وقت سن التشريعات الإسلامية .

ومهما يكن من عداء الغرب ، وغيره ، للشريعة ، والدعاية الظالمة ضدها ، فإنها دعوة منصوره ، بإذن الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد : ٧) .. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج : ٤٠) .. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (آل عمران : ١٢٦) .. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنْ جُنَدَاهُمْ لَغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) (الصفافات : ١٧١-١٧٣) .. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة : ٢١) .. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (يوسف : ٢١) .

تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمع تتعدد فيه الملل والثقافات

وتتناول هذه الدراسة ، موضوع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، في مجتمع تتعدد فيه الملل والثقافات .

وبعبارة أخرى ، تجيب عن أسئلة ، كثيراً ما تثار حول :

(أ) الأسس التي وضعها الإسلام ، في مجال التعامل مع غير المسلمين ، لتكون هادية للفرد ، والمجتمع ، والدولة ، ولتكون ديانة يدين بها المسلمون ، ويلتزمون أحكامها ، طاعة لله ، وعبادة ، وتكون مع ذلك قضاءً ، وقوانين حاكمة ، للدولة والمجتمع .

(ب) التعامل مع المواطنين ، من غير المسلمين ، ممن يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة في الدولة ، التي تحمي قوانينها حرمان المواطنين ، وحقوقهم في الحياة ، والتكريم ، والحرية الاعتقادية ، والفكرية .. وعن المساواة ، والعدل ، والتعليم ، والعمل ، والتملك ، والتصرف فيه .

(ج) التكامل في المجتمع ، والوطن ، حتى يسود المجتمع كله ، خلق البر ، والقسط ، والتراحم ، والمعاملة الحسنة .

ومن ثم ، فإن هذه الدراسة ، تهدف إلى تحقيق مزيد من التعاون بين جميع المواطنين ، على اختلاف مللهم ، وثقافتهم في مجتمع الشريعة الإسلامية ، حيث تتكافل جهودهم جميعاً ، وتتفجر الطاقات من أجل نهضة البلاد وتقدمها ، وسيادتها ، على ضوء تلكم القواعد والأسس العادلة ، التي تحقق التسامح الديني ، والتآلف ، والتواصل الاجتماعي ، والفكري ، بين جميع المواطنين .

وها هنا نذكر بشيء من البيان والتفصيل ، ما أجمل فيما سبق ، فنحدث و بشكل عام عن : وحدانية البشرية ، والدين ، وأصل الاختلاف ، وأسس التعامل مع غير المسلمين .

منشأ البشرية

يرجع البشر كلهم إلى أصل واحد ، تفرعوا عنه ، ونفس واحدة ، خلقوا منها : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُورًا رِجْلُكَمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .. والقرآن يذكرنا بهذا الأصل ، الذي تفرعت عنه الشعوب والقبائل ، ليتعارف الناس فيما بينهم ، ويتواصلوا : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. وتغرياً لهذا الأصل ، قال عليه الصلاة والسلام ، في خطبة الوداع : « يا أيها الناس إن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » (١).

وأصل الدين واحد ، من عند الله جل جلاله ، أنزل الكتب على رسله الكرام ، الذين تعاقبوا مبشرين ومنذرين ، يدعون إلى توحيد الله .. والإيمان بهم جميعاً ، واجب ، دون تفرقة بينهم ، لقوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (البقرة : ٢٨٥) ، ولقوله أيضاً : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

(١) رواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٤١١

اختلاف الناس :

وقد قدر الله تعالى ، أن يكون بين البشر ، اختلاف في الدين : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾
(هود : ١١٨ - ١١٩) .

وهذا ما يخبرنا به الخلاق العليم جل جلاله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) .

وتبعاً لذلك ، فللناس حرية الرأي ، والفكر ، والاختيار للعقيدة ، التي يعتقدونها :
﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وليس لأحد ، ولا قوة ،
أن تكره فرداً ، أو جماعة ، على دين ، يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾
(البقرة : ٢٥٦) .

وهي مشيئة الله القاضية ، أن يترك الناس واختيارهم الحر ، وما يدينون :
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) .

الإسلام والحرية الفكرية

والإسلام هو دين الحرية الفكرية ، الذي تواترت فيه آيات الكتاب ، الداعية إلى التفكر
والنظر ، ولا حجر على أحد في حرية الفكر ، والتعبير عن آرائه ، إلا إذا صار الأمر افتراءً
محضاً ، أو إثارة للفتنة . وما جاء في القرآن الكريم ، وسيرة النبي ﷺ ، من ذكر أقوال
المخالفين من غير المسلمين ، على اختلاف مللهم ، ومناقشة هذه الأقوال بالحجة ، والبرهان ،

اختلاف الناس :

وقد قدر الله تعالى ، أن يكون بين البشر ، اختلاف في الدين : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾
(هود : ١١٨ - ١١٩) .

وهذا ما يخبرنا به الخلاق العليم جل جلاله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) .

وتبعاً لذلك ، فللناس حرية الرأي ، والفكر ، والاختيار للعقيدة ، التي يعتقدونها :
﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وليس لأحد ، ولا قوة ،
أن تكره فرداً ، أو جماعة ، على دين ، يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾
(البقرة : ٢٥٦) .

وهي مشيئة الله القاضية ، أن يترك الناس واختيارهم الحر ، وما يدينون :
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) .

الإسلام والحرية الفكرية

والإسلام هو دين الحرية الفكرية ، الذي تواترت فيه آيات الكتاب ، الداعية إلى التفكر
والنظر ، ولا حجر على أحد في حرية الفكر ، والتعبير عن آرائه ، إلا إذا صار الأمر افتراءً
محضاً ، أو إثارة للفتنة . وما جاء في القرآن الكريم ، وسيرة النبي ﷺ ، من ذكر أقوال
المخالفين من غير المسلمين ، على اختلاف مللهم ، ومناقشة هذه الأقوال بالحجة ، والبرهان ،

دليل واضح على هذه الحرية ، كما هو دليل على امتداد بقاء غير المسلمين ، وسماحة التعامل معهم .. وقد كانت هذه الحقيقة ، واضحة في المواقف ، التي وقفها كل داعية إلى الإسلام ، وسيظل معلماً بارزاً لكل الأجيال ، موقف الصحابي الجليل ربيع بن عامر ، رضي الله عنه ، حين أجاب على القائد الفارسي رستم : « إن الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء الله ، من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (١) .

والواقع التاريخي ، يثبت أنه على توالي القرون ، في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لم يحدث أن أكره المسلمون غيرهم على الدين ، وهذا ما شهد به كل منصف ، ولو كان غير مسلم ، مثل « السير توماس آرنولد » في كتابه : (الدعوة إلى الإسلام) الذي كتب فيه عن تاريخ نشر الدعوة الإسلامية ، في أرجاء العالم ، وكيف أن دعاة الإسلام ، نشروا دعوتهم بين أقوام ، عرفوا بالشدة ، والخروج على كل نظام ، أو قانون ، حتى أسلموا ، وصاروا دعاة يهدون غيرهم » (٢) .

ويمضي آرنولد في هذه الشهادة ، ليقول : (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة ، لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين) (٣) ، ويزيد آرنولد في بيان تسامح المسلمين فيقول :

(لا يسعنا إلا الاعتراف ، بأن تاريخ الإسلام ، في ظل الحكم الإسلامي ، يمتاز ببعده بعداً تاماً ، عن الاضطهاد الديني) (٤) .

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، ج ٣ ص ٥٢٠ .

(٢) السير توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، انظر على سبيل المثال : ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

وهذه شهادة منصفة أخرى ، يؤيدها « ول ديورنت » ، في كتابه : « قصة الحضارة » ، حيث يقول : (لقد كان أهل الذمة ، المسيحيون ، والزرذشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية ، بدرجة من التسامح ، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية ، في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ، ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله) (١) .

وهذه الحرية لغير المسلمين ، تشمل التعبير عن معتقداتهم ، بالتعليم والممارسة ، وأداء شعائر دينهم ، فردياً ، وجماعياً .

أدب الدعوة والحوار مع غير المسلمين

وإذا كان ثم حوار ، أو مجادلة ، أو مناقشة ، فالأدب القرآني يقضي أنه : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْإِهْنَاءُ إِلَيْكُمْ وَجِدْوا لَهُمْ مَسْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

فهي دعوة إذاً تعتمد الأدب ، والحجة ، والبيان ، لمن أراد من غير المسلمين الاستبصار في الدين ، فيُجادل بالتي هي أحسن ، لتكون أنجح فيه كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل : ١٢٥) ، ولا تكون مواجهة بالقوة ، إلا حين يختار الطرف الآخر ذلك ، ويكون من أهل الحرب (٢) .

(١) ول ديورنت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٤ م ، مطبعة التاليف ، والترجمة والنشر ، مجلد ١٣ ، ص ١٣٠ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

وهذه شهادة منصفة أخرى ، يؤيدها « ول ديورنت » ، في كتابه : « قصة الحضارة » ، حيث يقول : (لقد كان أهل الذمة ، المسيحيون ، والزرذشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية ، بدرجة من التسامح ، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية ، في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ، ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله) (١) .

وهذه الحرية لغير المسلمين ، تشمل التعبير عن معتقداتهم ، بالتعليم والممارسة ، وأداء شعائر دينهم ، فردياً ، وجماعياً .

أدب الدعوة والحوار مع غير المسلمين

وإذا كان ثم حوار ، أو مجادلة ، أو مناقشة ، فالأدب القرآني يقضي أنه : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَجِدُونَهُمْ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

فهي دعوة إذا تعتمد الأدب ، والحجة ، والبيان ، لمن أراد من غير المسلمين الاستبصار في الدين ، فيُجادل بالتي هي أحسن ، لتكون أنجح فيه كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل : ١٢٥) ، ولا تكون مواجهة بالقوة ، إلا حين يختار الطرف الآخر ذلك ، ويكون من أهل الحرب (٢) .

(١) ول ديورنت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٤ م ، مطبعة التاليف ، والترجمة والنشر ، مجلد ١٣ ، ص ١٣٠ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

التطبيق العملي في عهد النبوة والخلافة الراشدة

والوثائق ، والعهود ، والأمثلة التالية ، دليل قاطع على هذه الحرية الفكرية ،
والتسامح الديني :

١ - وثيقة المدينة :

أول وثيقة تفصيلية ، بين المسلمين وأهل الكتاب ، ضمنت حرية الاعتقاد ، والفكر ،
وحقوق المواطنة الكاملة ، هي الوثيقة المعروفة بوثيقة المدينة^(١) وهي تبدأ هكذا :
بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي ، رسول الله ، بين المؤمنين ،
والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة
واحدة ، من دون الناس^(٢) .

٢ - عهد النبي ﷺ لأهل نجران :

وهو عهد ضمن لنصارى نجران ، الأمان على أنفسهم ، وأموالهم ، وعشيرتهم ،
وأماكن عبادتهم ، وألا يغير أسقف ، ولا راهب ، ولا كاهن^(٣) .

٣ - عهد أبي بكر لأهل نجران :

ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فإنه أكد في عهد منه لأهل نجران ، أنه

(١) انظر الوثيقة الأولى في كتاب د . محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة
الراشدة ، ط ٤ ، دار الفقايس ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

أجارهم بجوار الله ، وذمة النبي محمد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، وأرضهم ، وملتهم ، وعبادتهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وفاء لهم بكل ما ورد في العهد النبوي لنصارى نجران (١) .

٤ - عهد عمر لأهل إيلياء :

وعلى ذات النهج ، سار عمر رضي الله عنه ، فاعطى لأهل إيلياء عهداً ، وأماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمهم ، وبريشتهم ، وسائر ملتها ، ألا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، وألا يضار أحد ، ولا يكره على الدين (٢) .

وقد التزمت مشروعات القوانين ، المستمدة من نفس الشريعة الإسلامية ، وخاصة في مسائل التعامل مع غير المسلمين ، أعدل الأقوال ، والآراء ، وأوثقها ، وأدومها ، وأنسبها لتحقيق العدل والإحسان ، مع رعاية لظروف المكان ، والزمان . .

وغير المسلمين ، أشبه بأهل العهد ، الذين حررت بشأنهم وثيقة المدينة ، والعهد النبوي مع أهل نجران . وبما ينبغي أن يعلم بهذه المناسبة ، أن اصطلاح أهل الذمة ، في الفقه الإسلامي ، ليس كما لم يحسن فهمه كثير من الناس . فالذمة في اللغة ، بمعنى : الأمان ، والعهد ، والضمان ، والكفالة (٣) . . وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى ، واليهود ، من أهل الكتاب ، وغيرهم ، ممن بقي في دار الإسلام (٤) .

(١) المصدر السابق ، والصيغة نفسها .

(٢) د. محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٤٨٨ .

(٣) القاموس المحيط ، ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

(٤) محمد بن الحسن الشيباني ، «شرح السير الكبير» ، مطبعة دار المعارف النظامية ، حيدر آباد الدين ، الهند ، ط ١ ، سنة ١٣٣٥ م . ج ١ ، ص ١٦٨ .

وعليه ، فالذمة هي العهد ، أي العهد الذي يعهده الإمام ، أو من ينوب عنه ، مع غير المسلمين على السلم ، ووضع الحرب .. وعقد الذمة ، كما عبر عنه بعض الفقهاء المعاصرين ، يشبه التجنس في الوقت الحاضر (١) .

ويلحق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، غيرهم من جميع الملل ، غير الإسلامية ، كالمجوس ، حيث ورد في الهدي النبوي ، أنه أخذ الجزية من مجوس هجر . (٢)

ويؤيده ما ورد في صحيح البخاري ، عن عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر (٣) .

وأيضاً ، فقد روي مرسلأ عن النبي محمد ﷺ أنه قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » (٤) .

ويقول في ذلك ، الإمام علي رضي الله عنه : « من كان له ذمتنا ، قدمه كدمنا ، ودينه كديننا » ، وأنهم « إنما بذلوا الجزية ، لتكون دساؤهم كدمائنا ، وأموالهم كأموالنا » (٥) .. وفي مصنف الإمام عبد الرزاق (٦) أن رجلاً مسلماً ، قتل آخر من أهل الذمة ، في عهد عمر بن عبد العزيز ، فاقنص من المسلم بالذمي .

(١) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، ص ٢٤ .

(٢) المدونة الكبرى ، ٣٢ ، ص ٤٦ .

(٣) صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ . البلاذري : فتوح البلدان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٢٦٧ .

(٥) سنن الدارقطني ، كتاب المعود ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ .

(٦) ج ١٠ ، ص ١٠١ . حديث رقم ١٨٥١٥ - ١٨٥١٨ .

العدل والحقوق المتساوية لغير المسلمين

المساواة أمام القانون :

ويستمتع كل مواطن بهذه المساواة أمام القانون ، وهو أمر رباني لا يحتمل مساومة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .. وهذه الآية الكريمة ، تأمر باداء الأمانات إلى أهلها ، مسلمين أو غير مسلمين ، كما تقضي بان يلتزم العدل في الحكم بين الناس كلهم ، دون تمييز ، بسبب اختلاف الدين ، أو العنصر ، أو الثقافة ، أو الجنس ، أو اللون . والمؤمنون مأمورون ديناً ، أن يكونوا قوامين بالقسط في كل موقف ، لقوله تعالى : ﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا كُوْنُوْا قَوَّٰمِيْنَ لِلّٰهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْٓا اَعْدِلُوْٓا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى ﴾ (المائدة : ٨) .

وبموجب هذا العقد ، يصير غير المسلمين كالمسلمين ، في حرمة الدماء ، والأموال ، يقول ﷺ : « من قتل معاهداً لم ير رائحة الجنة ، وأن ربحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً » (١) ، ويقول في حديث غيره : « ألا من ظلم معاهداً ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (٢) .

واستقر هذا الفقه يسود في العهد النبوي ، وعهد الخلافة الراشدة ، واستمر إلى زمن المماليك ، والدولة الإسلامية . واتساقاً مع موقف المسلمين الثابت ، في حماية غير المسلمين ،

(١) صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٢) سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

من أهل ذمتهم ، في دمائهم ، وأموالهم ، أنه لما أراد أحد سلاطين التتار أن يطلق سراح أسرى المسلمين ، دون التصارى ، اعترضه الإمام ابن تيمية ، لأنه سرى في حقهم ما يسرى في حق المسلمين ، وأنه إن لم يطلق سراحهم ، جاهد المسلمون ، واستأنفوا القتال ، لافتكاكهم .. ولابن تيمية رسالة مشهورة بهذا الخصوص ، اسمها : (الرسالة القبرصية)^(١) .

الجزية وحق الدفاع :

وحكمة مشروعية عقد الذمة ، هي أن يترك الحربي القتال ، مع احتمال دخوله في الإسلام ، عن طريق مخالطته للمسلمين ، واطلاعه على شرائع الإسلام .

وليس المقصود من عقد الذمة ، تحصيل المال^(٢) ، وقد كان دفع الجزية واجباً على كل رجل بالغ ، قادر ، حسب طاقته ، نظير الحماية والدفاع ، حتى إن القادة المسلمين ، كانوا يردون على غير المسلمين ، ما دفعوا من جزية ، إذا لم يقدرُوا على القيام بواجب الحماية والدفاع ، بل كان بعض الخلفاء الراشدين - وهو عمر رضي الله عنه - يسقط دفع الجزية عن غير المسلمين الذين يشتركون مع الجيش ، ويؤدون خدمات عسكرية ، وهو ما نأخذ به في عصرنا هذا .

والتفسير الصحيح لكلمة الصغار في قوله تعالى : ﴿ حَقَّ يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة : ٢٩) ، هو جريان أحكام الشريعة عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن التزم ذلك هو الصغار^(٣) ، وفي ذلك يقول الشافعي :

-
- (١) مجموع الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ج ٢٨ ، ص ٦٠١ .
 (٢) عبد الكريم زيدان ، أحكام النعميين والمستأمنين في دار الإسلام ، ص ٢٢ ، وانظر : المراجعة شرح الخرشي ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، نيل الأوطار ، ج ٨ ، ص ٥٨ ، والمغني ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ .
 (٣) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٢ .

وسمعت عدداً من أهل العلم ، يقولون : إن الصغار أن يجري عليهم حكم الإسلام^(١)، وفي ذلك رد ، على من زعم أن الصغار هو الإذلال .. وتأسيساً على ما تقدم ، فليس يصح ما نسب لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من شروط سميت بالشروط العمرية^(٢) ، وإسنادها ضعيف اتفاقاً ، حتى إن ابن القيم ، لم يجد سبيلاً لتأكيدھا ، إلا بأن قال : إن شهرة هذه الشروط ، تغني عن إسنادھا .

وقد أنكر محقق الكتاب ، د . صبحي الصالح ، هذه العلة ، لأن الاستفاضة لم تكن دليلاً على الصحة في موضوع تاريخي ، تشريعي كهذا ، ثم وصف هذه الشروط بأنها متضاربة ، ومتناقضة^(٣) والواقع أن هذه الشروط ، تخالف ما صح من جملة العهود ، والمواثيق النبوية ، كوثيقة المدينة ، وعهد النبي ﷺ لأهل نجران ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه أيضاً لأهل نجران ، وكانوا نصارى ، كما أنها تخالف العهود العمرية ، كمعهد عمر رضي الله عنه لأهل إيليا ، الذي نص على إعطاء الأمان للنصارى ، على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وأنهم لا يكرهون ، ولا يضار أحد منهم^(٤) .

حق التعليم :

ويدل على مكانة العلم في الإسلام ، أن أول كلمة نزلت منه هي : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق : ١) ، وتوفير العلم بمختلف تخصصاته ، وفنونه ، واجب المجتمع ، والدولة ، وقد شهد الواقع العملي للمسلمين ، ما كان يتمتع به غير المسلمين ، من امتلاك

(١) الشافعي ، الأم ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ، « حاشية » ، ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٤) انظر ص ١٥١ ، من هذا الكتاب .

ناصية العلم ، في كثير من التخصصات ، التي لا غنى عنها في أي مجتمع ، كالطب والهندسة . ويشمل هذا الحق ، الرجل ، والمرأة ، على السواء . ومن واجب الدولة ، تنمية شخصية الإنسان ، وتوسيع ثقافته . . وقد ذهب ابن حزم ، إلى إلزامية التعليم ، وإن الإمام يجبر النساء على التعليم^(١) . . وفي الجانب التطبيقي ، كان التعليم تاريخياً متاحاً للجميع ، من أدنى المراحل التعليمية ، إلى أعلى المراحل ، والتخصصات . . وتوزيع الفرص الدراسية ، محكوم بأسس عادلة ، هي التميز العلمي .

عقوبة المرتد على الخيانة العظمى :

وقتل المرتد ، ليس عقوبة على الفكر ذاته ، لأن غير المسلمين ، قد كفّل لهم الإسلام ، حرية العقيدة ، وحمايتها ، من غير إكراه ، ولا تضيق ، لكن هذه العقوبة على الجناية الكبرى ، والمكيدة الدينية ، التي ادعى بها المرتد اعتناق الإسلام ، ثم أعلن الخروج منه ، للظعن فيه ، والإساءة إليه ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتِبِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٢) .

ولقد تحدث ابن قيم الجوزية في كتابه ، زاد المعاد^(٢) عن الردة ، وأثرها على الأمن الداخلي لدولة الإسلام ، وأنها ليست مسألة فردية .

(١) ابن حزم . الأحكام في أصول الأحكام ، ج ٢ ، ص ١٨١

(٢) انظر ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

الشرعية الإسلامية وحقوق الشعوب والأقاليم

وفي ظل تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، تتحقق للشعوب حقوقها الجامعة .. وقد حكم القاضي المسلم لأهل سمرقند ، بحق تقرير مصيرهم ، لأنهم كانوا أدخلوا في سلطان الدولة ، بالقوة ، دون اختيارهم ، ودون مراعاة أحكام الشريعة ، القاضية بالتخيير ، والإعلام ، والإنذار ، لأن استخدام القوة الجهادية ، ليس في الواقع ، إلا لرفع الإكراه ، على اعتناق دين ، أو على المنع منه .

كما يكفل نظام الحكم الإسلامي ، حق الحكم الذاتي ، مع حق التمييز الشفافي للأقاليم ، التي يكون فيها غير المسلمين متحيزين في مكان يخصهم ، ويباشرون بأنفسهم إدارة شؤونهم ، مع الاحتكام إلى محاكمهم ، بما كان يجعلهم في حكم الأقاليم الآن ، وهكذا كان الشأن مع نصارى نجران ، الذين كانوا على عهد دولة المدينة ، خارج حدودها ، وجاءت اتفاقية المدينة تؤكد هذا المعنى^(١) .. وهذا الاستثناء ، ليس استثناءً من الجريمة ، بحيث يعد الفعل مباحاً ، بل وضعت عقوبات تعزيرية لهذه الجرائم ، عدا الخمر والردة .. ولم يقفل الطريق أمام المسلم القوي ، المثبت في دينه ، أن يطلب تطبيق الحدود عليه ، بل إن هذا الحق ، من المطالبة بالطوع ، والاختيار ، ثابت لغير المسلم .

والناصيل الفكري لمبدأ استثناء غير المسلمين ، من تطبيق أحكام الحدود ، يعتمد على نص الآية الكريمة : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ

(١) انظر الوثائق المشار إليها ، ص ٧ ، وما بعدها

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿ (المائدة : ٤٢) .. وقد اختار الإمام الطبري هذا القول بالاستثناء ، وإن الآية الكريمة محكمة (١) .

الحقوق المدنية والسياسية :

وفي ظل تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، فإن الحقوق المدنية ، والسياسية مكفولة لكل مواطن ، فيحق لكل فرد أن يملك ، ويرث ، ويبيع ، ويشترى ، ويرهن ، ويكفل ، ويهب ، ويوصي ، ويقف ، ويتصرف ، وفقاً لمصلحته الشخصية .

حق العمل :

ويضمن الإسلام لكل أفراد المجتمع ، العدالة في ممارسة العمل الشريف ، والأجر المناسب ، لأن ذلك كله من أداء الامانات ، والوفاء بالحقوق ، والقيام بالعدل والإحسان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء : ٥٨) ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) ، ثم إن العمل في الفقه الإسلامي ، ضروري ، لسد حاجة المجتمع ، وعمران الكون .. وفي حماية الشريعة الإسلامية للعاملين ، وضمان الأجر العادل لهم ، ورد قوله : ﷺ « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » (٢) .

وتطبيقاً لذلك ، فلغير المسلمين فرصة للعمل ، وحرية التوظيف للوظائف العليا القيادية ، في مناطقهم ، والوسيطه ، وغيرها ، وقد بلغ بعض المؤرخين الغربيين ، حد الإعجاب ، في بيان ما لاحظوه من كثرة العمال غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، حيث يقول : (من الأمور التي تعجب لها ، كثرة العمال والمصرفين غير المسلمين ، في الدولة الإسلامية) (٣) .

(١) انظر جامع البيان في تلويل أي القرآن ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .

(٢) رواه ابن ماجه في الزهون ، حديث رقم ٢٤٢٣ .

(٣) انم متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٤ ، سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، ج ٦ ، ص ١٠٥ .

الضمان الاجتماعي :

يقوم المجتمع الإسلامي ، على التكافل ، والتراحم ، بين الناس جميعاً ، على مستوى الأسرة ، والجيران ، والحي ، والمجتمع ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل : ٩٠) . وفي التوجيهات النبوية في التراحم بين الناس كلهم : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، تبارك وتعالى ، إرحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء »^(١) .

وفي حق الجيران ، يقول ﷺ : « ليس المؤمن ، الذي يشيع ، وجاره جائع »^(٢) .

وفي مسؤولية الجيران ، وأهل الحي ، نحو المحتاجين ، يقول : « إيما أهل عرصة ، بات فيهم امرؤ جائع ، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله »^(٣) . وقد كان بيت المال ، في عهد الخلافة الراشدة ، يفرض للمواليد القوت ، ثم توسع الأمر ، حتى شمل الكسوة (كما يذكر البلاذري)^(٤) .

وتقوم الأوقاف الإسلامية ، والمبرات الخيرية ، والجمعيات الطوعية ، بدور عظيم ، يحقق التكافل ، والترابط ، والتراحم .

وأما الدولة ، فلها الصناديق القومية للضمان الاجتماعي ، والتكافل الاجتماعي لأرباب المعاشات ، إلى جانب ديوان الزكاة ، الذي يتسع بمصارفه المتعددة ، الأفراد ، والمجتمع .

(١) رواه الترمذي ، ج ٤ ، ص ٢٣٢٤ ، حديث رقم ١٩٢٤ .

(٢) رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٦٧/٨ ، مكتب العمال ٥٣/٩) .

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٤) انظر فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

التعامل مع غير المسلمين : نماذج قرآنية

وهنا نقدم نماذج ، من آيات القرآن الكريم ، محكمة وحاكمة ، في المعاملة الحسنة ،
العادلة :

١ - يقول تعالى : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرَهُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة : ٨) .

فهذه الآية ، تقرر أسس التعامل مع غير المسلمين ، أنها البر ، والقسط إليهم ، بكل ما يقتضيه معنى البر من خير ، والقسط من عدل ، وفاصلة الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، تدعو كل مسلم ، أن يسارع في تنفيذ ما يحبه الله .

ولا شك في أن هذا التعامل ، يقود إلى السلام الحقيقي ، وقد أحسن صاحب الظلال ، في تعليقه على هذه الآية ، حيث يقول :

إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله ، إخوة متعارفين ، متحابين ، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهاه هذا ، إلا عدوان أعدائه عليه ، وعلى أهله . فاما إذا سلموهم ، فليس الإسلام براغب في الخصومة ، ولا متطوع بها كذلك ، وحتى هو في حالة الخصومة ، يستبقي أسباب الولوج في النفوس ، بنظافة السلوك ، وعدالة المعاملة ، انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه ، بأن الخير أن ينضووا تحت لوائه الرفيع . ولا يبيأس الإسلام من هذا اليوم ، الذي تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

ويعضي التعليق في الظلال ، يبين أن الاصل في العلاقات ، هو العدل ، والسلام ، فيقول :

وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين ، هي أعدل القواعد ، التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ، ووجهته ، ونظره إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون في تصميمه اللدني ، وتقديره الأزلي ، من وراء كل اختلاف ، وتنوع .. وهو أساس شريعته الدولية ، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً ، هو الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي ، وضرورة رده ، أو خون الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة ، في وجه حرية الدعوة ، وحرية الاعتقاد ، وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا ، فهي السلم ، والمودة ، والبر ، والعدل للناس أجمعين ^(١) .

٢ - يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ (النساء : ١٠٥) ، فقد جاءت هذه الآية تأكيداً عملياً لما يامر به القرآن ، من الحكم بين الناس بالعدل ، دون تفرقة بينهم ، بأي سبب من الأسباب .

وهنا تبين الآية ، أن الله تعالى قد أنزل كتابه القرآن الكريم ، بالحق ، على رسوله ﷺ ، ليحكم بين الناس ، بما هداه إليه الله تعالى .. والآية تدعوه ﷺ ألا يكون محامياً ، ولا مدافعاً ، عن الخائنين للأمانات ، ممن يلون السنتهم بالكذب ، حتى يقضي لهم بظاهر شهاداتهم . وقد حذر النبي ﷺ من ذلك ، كما في الحديث التالي :

روى الإمام أحمد في مسنده ، عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : « جاء رجلان من الانصار ، يختصمون إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما ، قد درست ، ليس عندهما بينة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم

(١) انظر كتاب: في ظلال القرآن ، الشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ، ج ٦ ، ص ٢٥٤٤ - ٢٥٤٥ .

القيامة ، .. فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقي لآخي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إذا قاتلتما ، فاذها ، فافقسما ، ثم توخيا الحق بينكما ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه » (١) .

وفي أسباب النزول ، إشارة إلى أن بعض الانصار ، رمى أحد اليهود بغير حق ، بتهمة ظالة ، فجاءت هذه الآية وما بعدها ، في براءته .. آيات تتلى أهد الدهر ، توصل للعدالة ، وتؤكد لها بين الناس كلهم ، دون تفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو العنصر ، أو القبائل ، أو الشعوب . يقول تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَثْرَدٍ أَخَذْنَ ﴾ (المائدة : ٥) .

يقول صاحب الظلال ، في بيان معاني هذه الآية (٢) : (وهنا نطلع على صفحات السماحة الإسلامية ، في التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي (في دار الإسلام) ، وترتبطهم به روابط الذمة ، والعهد ، من أهل الكتاب ، أن الإسلام لا يكشف بان يترك لهم حريتهم الدينية ، ثم يعتزلهم ، فيصبحوا في المجتمع مجفوين ، معزولين ، أو منبوذين ، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمودة ، والجمالة ، والخلطة ، فيجعل طعامهم حلالاً للمسلمين ، وطعام المسلمين حلالاً لهم كذلك ، ليقيم التزاور ، والتضاييف ، والمؤاكلة ، وليظل المجتمع كله في ظل المودة ، والسماحة .. وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم - وهنا المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر - طبيبات للمسلمين .. و يقرن ذكرهن ، بذكر الحرائر العفيفات ، من المسلمات ، وهي سماحة لم يشعر بها إلا اتباع الإسلام ، من بين سائر اتباع الديانات والنحل) .
وواضح أن الإسلام ، لم يبيح زواج المسلمات بغير المسلمين ، والسبب الظاهر في ذلك ،

(١) رواه البخاري في الشهادات ، ٥٤ ، من ٢٨٨ ، برقم ٢٦٨ .. وأحمد في مسنده ، ٦٤ ، من ٢٢٠ .

(٢) انظر في ظلال القرآن ، ط دار الشروق ، ٢٤ ، من ٨٤٨ .

هو أن القوامسة في الزواج للرجال ، والمسلم مؤتمن على رعاية حقوق زوجته الكتابية ، لا يكرهها في الدين ، ولا يمنعها من الكنيسة ، بل يوصلها ، ولا يمنعها ما هو مباح لها في دينها .

وفوق كل هذا ، فهو مؤمن بأنبياء الله جميعاً ، لا يفرق بين أحد من رسله ، بينما غير المسلم ، يكفر بالرسالة الخاتمة ، ويخشى من فتنة المسلمة عن دينها .

وهذه المعاملة الحسنة ، وخلق البر ، والقسط ، أصل ثابت مستقر ، في توجيهات القرآن ، والسنة ، والتطبيق العملي في العهد النبوي ، والخلافة الراشدة ، وما اتصل بها من معاملات في العصور الإسلامية ، وليست سياسة عارضة ، أو مؤقتة .

ومثالاً على هذه المعاملة الحسنة ، وخلق البر والقسط ، مع غير المسلمين ، وجدنا رسول الله ﷺ يعود غلاماً يهودياً مريضاً ، حتى إن والده لم يملك تقديراً لهذا الجميل ، والصنيع الحسن ، من الزيارة النبوية ، إلا أن يشجع ولده على قبول الدعوة النبوية ، واعتناق الإسلام^(١) .

وقد انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ودرعه مرهونة عند يهودي ، وفي ذلك أعظم الدلالة على حسن التعامل .. وفعل ذلك مع وجود مسلمين أثرياء ، في صحابته ، الذين يفدونهم بأرواحهم ، وأموالهم^(٢) .

وقد كان ﷺ يستقبل الوفود من القبائل ، والأمصار ، ويحسن وفادتهم ، وهكذا صنع حين زاره وفد نصارى نجران ، وكان بمسجده في المدينة المنورة ، مما هو معروف خبره في السيرة النبوية ، وتاريخ الدعوة الإسلامية^(٣) ، وسيظل هذا الهدى النبوي العظيم ، هو نبراسنا في معاملاتنا المعاصرة ، بإذن الله .

(١) صحيح البخاري ، فتح الباري ، ٢١٩/٣ ، ج ١٣٥٦ .

(٢) صحيح البخاري ، فتح الباري ، ٩٩/٦ ، ج ٢٩٦٦ .

(٣) الروض الأنف ٢/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/٥ ، ط ١٩٧٧ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، وانظر النور ، السيرة النبوية ، ٣٢٦ .

خاتمة

الحمد لله الذي اكمل الدين ، واتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام ديناً :
﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
(آل عمران : ٨٥) .. ثم أما بعد :

فهذا غيض من فيض ، وقطر من غيث ، ينهمر من بشارت المستقبل للإسلام ، بظهوره وانتشاره ، وسيادة حضارته في العالمين ، فكل اخبار القرآن صدق ، وأحكامه عدل :
﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
(الأنعام : ١١٥) .. وفي تعاليم الإسلام والسنة ، وفقه الشريعة الإسلامية ، دلائل لا تستقصى ، تبشر كلها بالمستقبل للإسلام : ﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ نُبَاهَ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨) ..
﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

ولا يزال في موضوع المستقبل للإسلام ، كثير مما يحفز الدعاة إلى الله ، للعمل على بصيرة ، وفقنا الله ومن والانا ، لتصويب النظر على قضايا المستقبل للإسلام ، نجدد بحسن تقديمها أمر ديننا ، ثم إننا نجدد دعوتنا إلى أمتنا ، ونخص جيلنا المعاصر ، وشبابنا ، عدة المستقبل ، أن يسارعوا إلى الاستجابة لداعي الحق : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال : ٢٤) .. وإن يكونوا عند أمل أمتهم بهم ، فيلتزموا ذكر الله ، وساحات الجهاد ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ويعتصموا بحبل الله المتين ، ويلجأوا إليه ، قانتين ، في التوازل وغيرها ، ليكونوا حملة لواء الشريعة ، والدعوة إلى تطبيقها ، وإحياء الشعائر ، وإقامة الدين كله ، مراعين واقع مجتمعاتهم ، وأدب التدرج ، والانتقال في المراحل ، حاملين رسالة الرحمة والرفقة ، مقتدين بإمامهم ونبيهم ، عليه الصلاة والسلام ، في رافته ورحمته بالمسلمين ، ومن يعيش في كنفهم ، ليعيشوا السعادة الحقيقية مع المسلمين ، في ظل التزامهم شريعة الإسلام ، وإقامتها في شؤون حياتهم كلها . سائلين الله أن يهدي شباب الإسلام ، صنّاع المستقبل ، وقادة المسلمين ، وأن يعزهم بالإسلام ، ويعز الإسلام بهم ، ليصنعوا مستقبل الإسلام المشرق . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تقديم بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنه	٧
* المقدمة	٣٥
* بشارت مستقبل العالم الإسلامي في وجه التحديات	
الحضارية المعاصرة	٤١
* دور الذكر والجهاد في صناعة المستقبل	٦٣
* الفنون .. دراسة موضوعية في ضوء الكتاب والسنة	٩٠
* تطبيق الشريعة الإسلامية .. وأثره في إصلاح المجتمع	١٢٠
* تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمع متعدد فيه	
الملل والثقافات	١٤٥
* خاتمة	١٦٤
* الفهرس	١٦٥

وكلاء التوزيع

البلد	إسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الكتب	٤١٤١٨٢	ص.ب: ٨١٥٠ - الدوحة
	□ دار الثقافة وقسم توزيع الكتاب	٤١٣٤٧١	فاكس: ٤٣٦٨٠٠ - بجوار سوق الجبر
الإمارات	□ المكتبة الحداثة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب: ١٥٥٤٠ - العين
			فاكس: ٦٦٩٥٤٠
البحرين	□ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢	ص.ب: ٢٨٧ - البحرين
		٢١٠٧٦٨ (المنامة)	فاكس: ٢١٠٧٦٦
		٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	
السعودية	□ شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب: ٩٤٠٩ جدة ٢١٠٢١٤١٣
			شارع الملك فهد - خلف أسواق التويصر
			فاكس: ٦٦٠٧٦٠٠
عمان	□ مكتبة الطباعة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤	ص.ب: ١٨٩٨٢ - مطار صلالة
		٢٩٤٩٨٦	فاكس: ٢٩٢٨٧٩
الكويت	□ مكتبة دار المسار الإسلامية	٢٦٦٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ - حولي - شارع الشيخ
			رمز بريدي: ٢٣٠٤٥
			فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥١١ - ٦٠١٥٠١	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ - عمان
		٦٠١٩٦١	فاكس: ٩٠١٩٩١
اليمن	□ مكتبة الجنيد الجديدة	٧٨٠٤٠ - ٧١٣٩٣	ص.ب: ٥٤٤ - صنعاء
		٢٧٠٣٨ - ٧٥٨١١	
السودان	□ دار الشريعة	٧٧٩٤٦٠ - ٧٧٥٥٨٥	ص.ب: ٣٥٨ - الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأديبات	٧٤٨٨٤٤	ص.ب: ٧ - القاهرة
		٧٤٨٨٨٨ - ٧٥٨٨٨٨	فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
الغرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع (ميريس)	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 70 - 13008 - زنقة سيجلاما
			الدار البيضاء 5 - فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنجلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House, 233, Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271880

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريال
السودان	٤٠ ديناراً
عمان	٥٠٠ بيعة
قطر	٥ ريال
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	١٠ دراهم
اليمن	٤٠ ريالاً
○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقى دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعضله .	



الأمم
الكتاب

مصلحة توثيقية هيكلية كل شهرين من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة - الدوحة

ص. ب. : ٨٩٣ الدوحة - قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٣٥٨ لسنة ١٩٩٥م

الترقيم الدولي : ٢-٢٢-٢٣-٩٩٩٢١



مرکز تحقیقات کلامی و فقهی اسلامی



کتابخانه اسلامی

ص. پ. ۱۱۵ - الدوحة - قطر